تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

سورة المدثر
74

رقية محمود الغرايبة

الفهرس

الفهرس 2

مقدمة سورة المدثر 6

المدثر1-7 8

سورة المدثر8-31 16

المدثر 32-48 39

سورة المدثر 49-53 48

سورة المدثر 54-56 54

الفهرس (2)

الفهرس 2

الفهرس (2) 3

مقدمة سورة المدثر 6

بنزول سورة المدثر صار رسولا 6

المدثر1-7 8

الله سبحانه وتعالى خص نبينا صلى الله عليه وسلم في المخاطبة بما يليق به 8
ب{اقْرَأْ }صار نبيا وب {قُمْ فَأَنذِرْ } صار رسولا منذرا 8
الارسال بعد الانباء 10
افتتح أيات الارسال الى الخلق بالأمر بالنذارة 11
واجب على الأمة ان ينذروا كما أنذر 12
الطهارة في كتاب الله نوعان 12
الهجر الشرعى نوعان 14
هجرة السيئات 14
القيام بالواجبات يحتاج إلى شروط 15

سورة المدثر8-31 16

الوحيد هو الوليد بن المغيرة 16
اخبر الله عن الوليد بمثل حال المتفلسفة 17
مات الوليد كافرا كما أخبر القرآن 18
الكلام الذي توعد بسقر من قال انه قول البشر 18
ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء 19
من زعم انه كلام البشر فقد كفر 20
استعمال القياس فى الأمور الالهية لا يكون إلا على وجه الأولى 21
القرآن هو كلام الله 23
أصل الإيمان الايمان بما أنزله 24
الملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني وأمره الديني 24
صفة اهل النار 25
{وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا } 25
إنقسم الناس فى الرسل إلى ثلاثة أقسام 26
يحصل اليقين بثلاثة أشياء 26
الإيمان يزيد وينقص 27
الناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل 30
مرض القلوب فساد الاعتقادات وفساد الإرادات 30
مرض القلوب وشفائها 31

مرض القلب يوجب الريب فى الأنباء الصادقة 33
{ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ } 34
{ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ } 35
علم إستأثر الله به وعلم علمه بعض عباده 36
التذكير عام وخاص 36
عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد 37
لطائف لغوية 38

المدثر 32-48 39

ان للحسنة لنورا فى القلب 39
الايمان قول وعمل 40
الأعمال هي سبب فى الثواب والعقاب 41
تحريم أكل أموال الناس بالباطل 41
لفظ المسكين اذا أطلق تناول الفقير 42
يوم الدين 42
اليقين هنا الموت 43
الشفاعة نوعان 43
{فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } 44
شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم نافعة فى الدنيا والدين 45
لطائف لغوية 47

سورة المدثر 49-53 48

ذم المعرضين عن سماع الذكر 48
السماع الايماني 49
سماع القرآن له آثار إيمانية 49
الفرق فى السمع من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره 50
آياته سبحانه توجب شيئين 50
أمر بالتذكير التام النافع 51
علمنا مبنى على الكتاب والسنة 51
الله سبحانه شرع للأمة ما أغناهم به عما لم يشرعه 52
لطائف لغوية 53

سورة المدثر 54-56 54

العبد له مشيئة وقدرة 54
أسماء القرآن 57
إثبات مشيئة العبد وأنها لا تكون إلا بمشيئة الرب 57
العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله 58
الله تعالى خلق الأسباب والمسببات 61
لا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور 62
فارقنا مجوس الأمة و فارقنا الجبرية 62

الإستطاعة نوعان 63
{ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } 64

~§§ المدثر(مكية)56 §§~

مقدمة سورة المدثر

بنزول سورة المدثر صار رسولا

سورة إقرأ هي أول ما نزل من القرآن و لهذا إفتتحت بالأمر بالقراءة و ختمت بالأمر بالسجود و وسطت بالصلاة التى أفضل أقوالها و أولها بعد التحريم هو القراءة و أفضل أفعالها و آخرها قبل التحليل هو السجود و لهذا لما أمر بأن يقرأ أنزل عليه بعدها المدثر لأجل التبليغ فقيل له {قُمْ فَأَنذِرْ }المدثر2 فبالأولى صار نبيا و بالثانية صار رسولا و لهذا خوطب بالمتدثر و هو المتدفئ من برد الرعب و الفزع الحاصل بعظمة ما دهمه لما رجع إلى خديجة ترجف بوادره و قال دثرونى دثرونى فكأنه نهي عن الإستدفاء و أمر بالقيام للإنذار[1]

وفى الصحيحين عن عائشة قالت أول ما بدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصادقة وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم جبب إليه الخلاء فكان يأتى غار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو بحراء فأتاه الملك فقال له اقرأ قال لست بقارئ قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت لست بقارئ قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت لست بقارئ ثم أخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره الحديث بطوله فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح أنه لم يكن قارئا وهذه السورة أول ما أنزل الله عليه وبها صار نبيا ثم أنزل عليه سورة المدثر وبها صار رسولا لقوله {قُمْ فَأَنذِرْ }المدثر2 ولهذا ذكر سبحانه فى هذه السورة الوجود العينى والوجود العلمى وهذا أمر بين يعقله الإنسان بقلبه لا يحتاج فيه الى سمع فإن الشئ لا يكون قبل كونه وأما كون الأشياء معلومة لله قبل كونها فهذا حق لا ريب فيه وكذلك كونها مكتوبة عنده أو عند ملائكته كما دل على ذلك الكتاب والسنة وجاءت به الآثار وهذا العلم والكتاب هو القدر الذى ينكره غالية القدرية ويزعمون أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها وهم كفار كفرهم الأئمة كالشافعى وأحمد وغيرهما وقد بين الكتاب والسنة هذا القدر وأجاب النبى عن السؤال الوارد عليه وهو ترك العمل لأجله فأجاب عن ذلك ففى الصحيحين عن على بن أبى طالب قال كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله فقعد وقعدنا حوله ومعه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 477

مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد أو قال ما من نفس منفوسة الا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار والا قد كتبت شقية أو سعيدة قال فقال رجل يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة فقال اعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى{5} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7} وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10} الليل 5-10[1]

[111] مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 151-153

المدثر1-7

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1} قُمْ فَأَنذِرْ{2} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ{3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ{4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ{5} وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ{6} وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ{7}

الله سبحانه وتعالى خص نبينا صلى الله عليه وسلم فى المخاطبة بما يليق به

ان الله سبحانه وتعالى خص نبينا صلى الله عليه وسلم في المخاطبة بما يليق به فقال {لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }النور63 فنهى ان يقولوا يا محمد او يا احمد او يا ابا القاسم ولكن يقولون يا رسول الله يا نبي الله وكيف لا يخاطبونه بذلك والله سبحانه وتعالى اكرمه في مخاطبته اياه بما لم يكرم به احدا من الانبياء فلم يدعه باسمه في القران قط بل يقول {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً }الأحزاب45 {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ }المائدة67 {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ }المزمل1 {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ }المدثر1 مع انه سبحانه قد قال {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ }البقرة35 الاية { يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ}البقرة33 { يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ }هود46 {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا }هود76 { يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِيَ }الأعراف144[1]

ففى حق الرسول حيث قال {لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً }النور63 فأمرهم ان يقولوا يا رسول الله يا نبى الله كما خاطبه الله بقوله {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ }الأنفال64 {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ }المائدة41 لا يقول يا محمد يا أحمد يا أبا القاسم وان كانوا يقولون فى الاخبار كالأذان ونحوه اشهد ان محمدا رسول الله كما قال تعالى {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ }الفتح29 وقال { وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ }الصف6 وقال {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ}الأحزاب40 فهو سبحانه لم يخاطب محمدا الا بنعت التشريف كالرسول والنبى والمزمل والمدثر وخاطب سائر الانبياء بأسمائهم مع انه فى مقام الاخبار عنه قد يذكر اسمه فقد فرق سبحانه بين حالتى الخطاب فى حق الرسول[2]

ب{اقْرَأْ }صار نبيا وب {قُمْ فَأَنذِرْ } صار رسولا منذرا

---

[1] ب الصارم المسلول ج: 3 ص: 805

[2] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 143

فإن أول ما أنزل من القرآن {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 عند جماهير العلماء و قد قيل {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ }المدثر1 روى ذلك عن جابر و الأول أصح فإن ما في حديث عائشة الذي في الصحيحين يبين أن أول ما نزل {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ }العلق1 نزلت عليه و هو في غار حراء و أن المدثر نزلت بعد و هذا هو الذي ينبغي فإن قوله اقرأ أمر بالقراءة لا بتبليغ الرسالة و بذلك صار نبيا و قوله {قُمْ فَأَنذِرْ }المدثر2 أمر بالإنذار و بذلك صار رسولا منذرا ففي الصحيحين من حديث الزهري عن عروة عن عائشة قالت أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه و سلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه و هو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله و يتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق و هو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}العلق 1-5 فرجع بها رسول الله صلى الله عليه و سلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة و أخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت له خديجة كلا و الله لا يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم و تحمل الكل و تقري الضيف و تكسب المعدوم و تعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى إبن عم خديجة و كان أمرا تنصر في الجاهلية و كان يكتب الكتاب العبري فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب و كان شيخا كبيرا قد عمى فقالت له خديجة يا إبن عم إسمع من إبن أخيك فقال له و رقة يا إبن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله صلى الله عليه و سلم خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتنى فيها جذعا ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم أو مخرجي هم قال نعم لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي و إن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة أن توفى و فتر الوحي

قال إبن شهاب الزهري سمعت أبا سلمة بن عبدالرحمن قال أخبرنى جابر بن عبدالله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يحدث عن فترة الوحى فبينما أنا أمشى سمعت صوتا فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء و الأرض فجئثت حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلى فقلت زملونى زملوني فزملوني فأنزل الله تعالى { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1} قُمْ فَأَنذِرْ{2} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ{3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ{4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ{5} المدثر1-5 فهذا يبين أن المدثر نزلت بعد تلك الفترة و أن ذلك كان بعد أن عاين الملك الذي جاءه بحراء أولا فكان قد رأى الملك مرتين و هذا يفسر حديث جابر الذي روى من طريق آخر كما أخرجاه من حديث يحيى بن أبي كثير قال سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ }المدثر1 قلت يقولون { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}العلق1 فقال أبو سلمة سألت جابر بن عبدالله عن ذلك و قلت له مثل ما قلت فقال جابر لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه و سلم قال جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا و نظرت عن شمالي فلم أر شيئا و نظرت أمامي فلم أر شيئا و نظرت خلفي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فرأيت شيئا فأتيت خديجة فقلت دثروني و صبوا علي ماء باردا فدثروني و صبوا علي ماء باردا قال فنزلت {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1} قُمْ فَأَنذِرْ{2} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ{3}المدثر1 -3 فهذا الحديث يوافق المتقدم و أن المدثر

نزلت بعد أن هبط من الجبل و هو يمشي و بعد أن ناداه الملك حينئذ و قد بين فى الرواية الأخرى أن هذا الملك هو الذي جاءه بحراء و قد بينت عائشة أن اقرأ نزلت حينئذ في غار حراء لكن كأنه لم يكن علم أن اقرأ نزلت حينئذ بل علم أنه رأى الملك قبل ذلك و قد يراه و لا يسمع منه لكن فى حديث عائشة زيادة علم و هو أمره بقراءة اقرأ و فى حديث الزهري أنه سمي هذا فترة الوحى و كذلك فى حديث عائشة فترة الوحى فقد يكون الزهري روى حديث جابر بالمعنى و سمى ما بين الرؤيتين فترة الوحى كما بينته عائشة و إلا فإن كان جابر سماه فترة الوحى فكيف يقول أن الوحى لم يكن نزل و بكل حال فالزهري عنده حديث عروة عن عائشة و حديث أبى سلمة عن جابر و هو أوسع علما و أحفظ من يحيى بن أبي كثير لو إختلفا لكن يحيى ذكر أنه سأل أبا سلمة عن الأولى فأخبر جابر بعلمه و لم يكن علم ما نزل قبل ذلك و عائشة أثبتت و بينت والآيات آيات اقرأ و المدثر تبين ذلك و الحديثان متصادقان مع القرآن و مع دلالة العقل على أن هذا الترتيب هو المناسب [1]

الارسال بعد الانباء

وأول ما فرض الله الشهادتين ثم الصلاة فانه أمر بالصلاة فى اول أوقات الوحي بل قد ثبت فى الصحيح أن أول ما أنزل عليه { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} العلق1-2 الى قوله { عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5} العلق5 ثم أنزل عليه بعد ذلك { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1} قُمْ فَأَنذِرْ{2}المدثر 1-2 فهذا الخطاب إرسال له الى الناس والارسال بعد الانباء فإن الخطاب الاول ليس فيه إرسال وآخر سورة إقرأ {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ{19} العلق19 فأول السورة أمر بالقراءة وآخرها أمر بالسجود والصلاة مؤلفة من أقوال وأعمال فأفضل أقوالها القراءة وأفضل أعمالها السجود والقراءة أول أقوالها المقصودة وما بعده تبع له وقد روى أن الصلاة أول ما فرضت كانت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ثم فرضت الخمس ليلة المعراج وكانت ركعتين ركعتين فلما هاجر أقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر وكانت الصلاة تكمل شيئا بعد شيء فكانوا أولا يتكلمون فى الصلاة ولم يكن فيها تشهد ثم أمروا بالتشهد وحرم عليهم الكلام وكذلك لم يكن بمكة لهم اذان وإنما شرع الأذان بالمدينة بعد الهجرة وكذلك صلاة الجمعة والعيد والكسوف والاستسقاء وقيام رمضان وغير ذلك إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة وأمروا بالزكاة والإحسان فى مكة أيضا ولكن فرائض الزكاة ونصبها إنما شرعت بالمدينة وأما صوم شهر رمضان فهو إنما فرض فى السنة الثانية من الهجرة وأدرك النبى تسع رمضانات وأما الحج فقد تنازع الناس فى وجوبه فقالت طائفة فرض سنة ست من الهجرة عام الحديبية بإتفاق الناس قالوا وهذه الآية تدل على وجوب الحج ووجوب العمرة أيضا لأن الأمر بالاتمام يتضمن الامر بإبتداء الفعل وإتمامه وقال الأكثرون إنما وجب الحج متأخرا قيل سنة تسع وقيل سنة عشر وهذا هو الصحيح فإن آية الإيجاب إنما هي قوله تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ }آل عمران97 وهذه الآية فى آل عمران فى سياق مخاطبته لأهل الكتاب وصدر آل عمران وما فيها من مخاطبة أهل الكتاب نزل لما قدم على النبى وفد نجران النصارى وناظروه فى امر المسيح وهم اول من أدى الجزية من أهل الكتاب وكان ذلك بعد إنزال سورة براءة التى شرع فيها الجزية وأمر فيها بقتال أهل الكتاب حتى

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:258- 260 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 492-493

يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وغزا النبى غزوة تبوك التى غزا فيها النصارى لما امر الله بذلك فى قوله {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ }التوبة29 ولهذا لم يذكر وجوب الحج فى عامة الأحاديث وإنما جاء فى الأحاديث المتأخرة [1]

افتتح أيات الارسال الى الخلق بالأمر بالنذارة

قال عمر بن عبد العزيز من عبد الله بغير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح وكما فى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه العلم امام العمل والعمل تابعه وهذا ظاهر فان القصد والعمل ان لم يكن بعلم كان جهلا وضلالا واتباعا للهوى كما تقدم وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الاسلام فلابد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ولا بد من العلم بحال المأمور والمنهى ومن الصلاح ان يأتى بالأمر والنهى بالصراط المستقيم وهو اقرب الطرق الى حصول المقصود ولابد فى ذلك من الرفق كما قال النبى ما كان الرفق فى شئ الا زانه ولا كان العنف فى شئ الا شانه وقال إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف ولا بد أيضا أن يكون حليما صبورا على الأذى فانه لا بد ان يحصل له أذى فان لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح كما قال لقمان لابنه { وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ }لقمان17 ولهذا أمر الله الرسل وهم أئمة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بالصبر كقوله لخاتم الرسل بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة فانه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة يا أيها المدثر بعد ان أنزلت عليه سورة اقرأ التى بها نبئ فقال { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1} قُمْ فَأَنذِرْ{2} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ{3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ{4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ{5} وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ{6} وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ{7} المدثر1-7 فافتتح أيات الارسال الى الخلق بالأمر بالنذارة وختمها بالأمر بالصبر ونفس الانذار أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فعلم انه يجب بعد ذلك الصبر وقال {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}الطور48 وقال تعالى{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً }المزمل10 {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ }الأحقاف35 {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ }القلم48 {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ }النحل127 {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }هود115 فلا بد من هذه الثلاثة العلم والرفق والصبر العلم قبل الأمر والنهى والرفق معه والصبر بعده وان كان كل من الثلاثة مستصحبا فى هذه الاحوال وهذا كما جاء فى الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعا ذكره القاضى أبو يعلى فى المعتمد لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه وليعلم أن الأمر بهذه الخصال فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما يوجب صعوبة على كثير من النفوس فيظن انه بذلك يسقط عنه فيدعه وذلك مما يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال أو أقل فان ترك الأمر الواجب معصية فالمنتقل من معصية الى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار والمنتقل من معصية الى معصية كالمنتقل من دين باطل الى دين باطل وقد يكون الثانى شرا من الأول وقد يكون دونه وقد يكونان

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 605

سواء فهكذا تجد المقصر فى الأمر والنهى والمعتدى فيه قد يكون ذنب هذا أعظم وقد يكون ذنب هذا أعظم وقد يكونان سواء [1]

واجب على الأمة ان ينذروا كما أنذر

فقوله فى هذه السورة {اقْرَأْ }العلق1 كقوله فى آخرها {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ }العلق19 و قوله { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ{9} وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ{10} وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ{11}الضحى 9-11 هذا متناول لجميع الأمة و قوله {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ {1} قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً{2}المزمل1-2 فإنه كان خطابا للمؤمنين كلهم و كذلك قوله { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1} قُمْ فَأَنذِرْ{2}المدثر1-2 لما أمر بتبليغ ما أنزل إليه من الإنذار و هذا فرض على الكفاية فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل إليه و ينذروا كما أنذر قال تعالى { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }التوبة122 و الجن لما سمعوا القرآن { وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ }الأحقاف29 [2]

الطهارة فى كتاب الله نوعان

و قد استدل كثير من المتأخرين من اصحابنا و غيرهم على وجوب تطهير الثياب بقوله سبحانه {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ }المدثر4 حملا لذلك على ظاهر اللغة التي يعرفونها فان الثياب هي الملابس و تطهيرها بان تصان عن النجاسة و تجنبها بتقصيرها و تبعيدها منها و بان تماط عنها النجاسة إذا اصابتها و قد نقل هذا عن بعض السلف لكن جماهير السلف فسروا هذه الاية بأن المراد زك نفسك و اصلح عملك قالوا و كنى بطهارة الثياب عن طهارة صاحبها من الارجاس و الاثام و ذلك ان هذه الأية في أول سورة المدثر و هي أول ما نزل من القران بعد أول سورة اقرا و لعل الصلاة لم تكن فرضت حينئذ فضلا عن اذى الطهارتين التي هي من توابع الصلاة ثم هذه الطهارة من فروع الشريعة و تتماتها فلا تفرض الا بعد استقرار الاصول و القواعد كسائر فروع الشريعة اذ ذاك لم تكن قد فرضت الاصول و القواعد ثم ان الاهتمام في أول الامر بجمل الشرائع و كلياتها دون الواحد من تفاصيلها و الجزء من جزئياتها هو المعروف من طريقة القران و هو الواجب في الحكمة ثم ثياب النبي صلى الله عليه و سلم لم تعرض لها نجاسة الا ان تكون في الاحيان فتخصيصها بالذكر دون طهارة البدن و غيره مع قلة الحاجة و عدم الاختصاص بالحكم في غاية البعد و إذا حملت الاية على الطهارة من الرجس و الاثم و الكذب و الغدر و الخيانة و الفواحش كانت قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة و الكناية بطهارة الثياب عن طهارة صاحبها من الفواحش و الكذب و الخيانة و نحو ذلك مشهور في لسان العرب غالب في عرفهم نظما و نثرا كما قال ثياب بني عوف طهارى نقية و قال الآخر و اني بحمد الله لا ثوب غادر لبست و لا من خزية اتقنع حتى إذا قيل فلان طاهر الثياب طاهر الذيل لم يفهم منه عند الاطلاق الا ذلك فيكون قد صار ذلك حقيقة عرفية كما صار المجيء من الغائط حقيقة في قضاء الحاجة و كما صار مسيس النساء و مباشرتهن حقيقة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 137-138 و الاستقامة ج: 2 ص: 232

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:327- 328

في الجماع فيجب حمل الكلام عليه و لذلك وجهان احدهما ان اللباس يضاف اليه من الحكم و يقصد به الاضافة إلى الانسان نفسه للعلم بان المقصود من الثوب لا نفس الثوب و يجعل ذلك نوعا من الكناية كما قال الانصار للنبي صلى الله عليه و سلم لنمنعنك مما نمنع منه ازرنا الثاني ان يراد نفس تطهير الثوب لكن الطهارة في كتاب الله على قسمين طهارة حسية من الاعيان النجسة و من اسباب الحدث المعلومة و طهارة عقلية من الاعمال الخبيثة فالاول كقوله تعالى { فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ }التوبة108 نزلت في اهل قباء لما كانوا يستنجون من البول و الغائط و قوله تعالى { وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }البقرة222 و الثاني كقوله سبحانه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ف }المجادلة12 و قوله تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 إلى غير ذلك من الآيات و إذا كان كذلك فالثوب نفسه يكتسب صفة حقيقية من لابسه ان كان صالحا أو فاسقا حتى يظهر ذلك فيه إذا قوي تاثير صاحبه فيه و يظهر ذلك في مواضع الخير و مواضع الشر و لاجل الارتباط الذي بين اللباس و المقعد و بين صاحبهما امر بتطهيرهما من النجاسة و كانت طهارة الخفين طهارة للقدمين و استحب تكريم البقاع و الثياب التي عملت فيها الصالحات حتى اعد سعد رضي الله عنه جبته التي شهد فيها بدرا كفنا و استوهب بعض ازواج النبي صلى الله عليه و سلم منه بردة لتتخذها كفنا و هذا كثير فالامر بتطهير عينه من الانجاس امر بطهارة صاحبه بالضرورة و الاشبه و الله اعلم ان الاية تعم نوعي الطهارة و تشمل هذا كله فيكون مأمورا بتطهير الثياب المتضمنة تطهير البدن و النفس من كل ما يستقذر شرعا من الاعيان و الاخلاق و الاعمال لأن تطهيرها ان تجعل طاهرة و متى اتصل بها و بصاحبها شيء من النجاسة لم تكن مطهرة على الاطلاق فانها متى ازيل عنها نجس دون نجس لم تكن قد طهرت حتى يزال عنها كل نجس بل كل ما امر الله باجتنابه من الارجاس وجب التطهير منه و هو داخل في عموم هذا الخطاب يبين ذلك ان الطهارة من الخمر و البول و الدم ذلك هي من تتمة الطهارة من اكلها و شربها و تكميل لذلك المقصود و تحقيق للتنزه من الارجاس بكل طريق و إنما حرم الله سبحانه مباشرة هذه الاعيان الرجسة كما حرم ممازجتها بالاكل و الشرب لما فيها من الخبث و حرم مباشرتها بالثياب قطعا لملابستها بكل طريق و مبالغة في اجتنابها و على هذه فالحجة من الاية اندراج هذه الطهارة في العموم و بذلك تندفع تلك الأسئلة فان قيل فقد روى عيد الله بن مسعود رضي الله عنه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند الكعبة و جمع قريش في مجالسهم اذ قال قائل منهم الا تنظرون إلى هذا المرء ايكم يقوم إلى جزور ال فلان فيعمد إلى فرثها و دمها و سلاها فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه فانبعث اشقاهم فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه فاستضحكوا و جعل بعضهم يميل على بعض و انا قائم انظر لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم و النبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق انسان فاخبر فاطمة فجاءت و هي جويرية فطرحته عنه ثم اقبلت عليهم تسبهم فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم و كان إذا دعا دعا ثلاثا و إذا سأل سأل ثلاثا ثم قال اللهم عليك بقريش ثلاث مرات فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك و خافوا دعوته ثم قال اللهم عليك بابي جهل ابن هشام و عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة و الوليد بن عتبة و امية بن خلف و عقبة بن أبي معيط و ذكر السابع و لم احفظه قال فوالذي بعث محمدا بالحق لقد رأيتهم صرعى قد غيرتهم الشمس و كان يوما حارا متفق عليه فهذا يدل ظاهره على ان اجتناب النجاسة لا يشترط لصحة الصلاة قلنا قد قال بعض اصحابنا هذا منسوخ لانه كان بمكة في أول الامر و لعل الصلوات الخمس لم تكن فرضت حينئذ و

فرض الطهارة إنما نزل بالمدينة و ايضا فان الحكم بنجاسة الدم و نجاسة ذبائح المشركين إنما علم لما حرمت الميتة و الدم و لحم الخنزير و لعل هذا التحريم لم يكن نزل بعد و قيل لعل النبي صلى الله عليه وسلم لم يعلم ما وضعوا على ظهره حتى قضى صلاته و النجاسة إذا لم يعلم بها لم تبطل ثم أنه لم يطل الفصل لأن فاطمة جاءت فالقتها عن ظهره و اقبلت عليهم تسبهم فقد علم انهم القوا على ظهره شيئا لكن لم يدر ما هو و القي عنه بابي هو وامي لم يدر ما هو و قيل هذا يقتضي طهارة الموضوع فوق ظهره فيفيد ان فرث الابل طاهر و الدم فانه كان دما يسيرا معفوا عنه لأن الذي يعلق بالسلا من الدم لا يكون كثيرا في العادة و اما السلا نفسه فانه كان من ذبيحة المشركين لكن لم يكن قد حرم اكل ذبائحهم و حكم بنجاستها فان المسلمين الذين كانوا بين ظهرانيهم إنما كانوات يأكلون من ذبائحهم و إنما حرم الميتة و ما اهل لغير الله به ثم انه فيما بعد حرم اللحم و حكم بنجاسته لكونه من ذبيحة غير مسلم و لا كتابي بمنزلة الميتة و الفرث نفسه لم يتغير حكمه لانه لا يموت و إنما هو كاللبن فبقي على حاله و هذا الوجه اقرب من غيره[1]

الهجر الشرعى نوعان

الهجر الشرعى نوعان أحدهما بمعنى الترك للمنكرات و الثانى بمعنى العقوبة عليها فالأول هو المذكور فى قوله تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }الأنعام68 وقوله تعالى {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً }النساء140 فهذا يراد به أنه لا يشهد المنكرات لغير حاجة مثل قوم يشربون الخمر يجلس عندهم وقوم دعوا الى وليمة فيها خمر وزمر لا يجيب دعوتهم وأمثال ذلك بخلاف من حضر عندهم للانكار عليهم او حضر بغير اختياره ولهذا يقال حاضر المنكر كفاعله وفى الحديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر وهذا الهجر من جنس هجر الانسان نفسه عن فعل المنكرات كما قال المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر والفسوق الى دار الاسلام والايمان فانه هجر للمقام بين الكافرين والمنافقين لذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به ومن هذا قوله تعالى {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ }المدثر5 النوع الثانى الهجر على وجه التاديب وهو هجر من يظهر المنكرات يهجر حتى يتوب منها كما هجر النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر ولم يهجر من أظهر الخير وان كان منافقا فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير [2]

هجرة السيئات

الهجرة هى الهجرة على السيئات وهجرة السيئات هجرة ما نهى الله عنه كما قال تعالى {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ }المدثر5 وقال تعالى {وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً }المزمل10 [3]

---

[11]ب شرح العمدة ج: 4 ص: 404

[2]مجموع الفتاوى ج: 28 ص:203- 204

[3]مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 313

القيام بالواجبات يحتاج إلى شروط

والقيام بالواجبات من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها كما جاء فى الحديث ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود والحلم بعد الأمر ليصير على أذى المأمور المنهى فإنه كثيرا ما يحصل له الأذى بذلك ولهذا قال تعالى {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ }لقمان17 وقد أمر نبينا بالصبر في مواضع كثيرة كما قال تعالى فى أول المدثر { قُمْ فَأَنذِرْ{2} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ{3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ{4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ{5} وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ{6} وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ{7} المدثر 2-7 وقال تعالى {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا }الطور48 وقال {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ }المزمل10 وقال تعالى {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا }الأنعام34 وقال {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ }القلم48 وقد جمع سبحانه بين التقوى والصبر فى مثل قوله {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ }آل عمران186 والمؤمنون كانوا يدعون إلى الإيمان بالله وما أمر به من المعروف وينهون عما نهى الله عنه من المنكر فيؤذيهم المشركون وأهل الكتاب وقد أخبرهم بذلك قبل وقوعه وقال لهم { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ }آل عمران186 وقد قال يوسف عليه السلام { أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }يوسف90 فالتقوى تتضمن طاعة الله ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر يتناول الصبر على المصائب التى منها أذى المأمور المنهي للآمر الناهي [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 15 ص:167- 168

سورة المدثر8-31

{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ{8} فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ{9} عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ{10} ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً{12} وَبَنِينَ شُهُوداً{13} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً{14} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ{15} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً{16} سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً{17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} سَأُصْلِيهِ سَقَرَ{26} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ{27} لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ{28} لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ{29} عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ{30} وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ{31}

الوحيد هو الوليد بن المغيرة

وعن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي فقرأ عليه من القرآن {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} النحل90 قال أعد فأعاد النبي فقال والله إن له الحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا البشر وفي لفظ أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا قال ولم قال ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعوض مما قبله قال قد علمت قريش أني من أكثرها مالا قال فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر لها وأنك كاره له قال وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولابقصيده مني والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ووالله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته قال لا ترضى عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعني حتى أفكر فيه فلما فكر قال هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً} المدثر 11 رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة عنه وفي رواية أخرى أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد بعضكم قول بعض فقالوا فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا

رأيا نقوم به فقال بل أنتم فقولوا وأنا أسمع فقالوا نقول كاهن فقال ما هو بكاهن لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكهان فقالوا نقول مجنون فقال ما هو بمجنون لقد رأينا المجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته قالوا فنقول شاعر فقال ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريظه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر قالوا فنقول ساحر قال فما هو بساحر قد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده فقالوا ما نقول يا أبا عبد شمس قال والله إن لقوله حلاوة وإن أصله لغدق وإن فرعه لجنى فما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول أن تقولوا ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه وبين المرء وبين أخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وذلك من قوله { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً{12} وَبَنِينَ شُهُوداً{13} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً{14} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ{15} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً{16} سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً{17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} سَأُصْلِيهِ سَقَرَ{26} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ{27} لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ{28}المدثر 10-28 وأنزل في النفر الذين كانوا معه {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ }الحجر91 أي أصنافا [1]

اخبر الله عن الوليد بمثل حال المتفلسفة

فان الوحيد الذى هو الوليد بن المغيرة كان من جنسهم كان من المشركين الذين هم صابئون ايضا فان الصابئين كأهل الكتاب تارة يجعلهم الله قسما من المشركين وتارة يجعلهم الله قسيما لهم كما قال تعالى {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }البينة1 وقال {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ }البينة6 وكذلك لما ذكر الملل الست في الحج فقال {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }الحج17 الآية وقال تعالى {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ }التوبة31 الآية وهذا بعد قوله {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ }التوبة30 إلى قوله { وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }التوبة32 وقال {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ }المائدة72 فإذا كان اليهود والنصارى قد يكونون مشركين فالصابئون أولى وذلك بعد تبديلهم فحيث وصفوا بالشرك فبعد التبديل وحيث جعلوا غير مشركين فلأن أصل دينهم الصحيح ليس فيه شرك فالشرك مبتدع عندهم فينبغى التفطن لهذه المعانى وكان الوحيد من ذوى الرأى والقياس والتدبير من العرب وهو معدود من حكمائهم وفلاسفتهم ولهذا اخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة فى قوله { إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} المدثر18-25 [2]

---

[1] الجواب الصحيح ج: 5 ص: 373

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 20-21

مات الوليد كافرا كما أخبر القرآن

وفي القرآن من الإخبار بالمستقبلات شيء كثير كقوله تعالى في سورة المدثر { فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ{8} فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ{9} عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ{10} ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً{12} وَبَنِينَ شُهُوداً{13} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً{14} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ{15} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً{16} سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً{17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} سَأُصْلِيهِ سَقَرَ{26} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ{27} لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ{28}المدثر 8-28 و كان كما أخبر به مات الوليد كافرا[1]

الكلام الذي توعد بسقر من قال انه قول البشر

وقال سبحانه{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25} التكوير 22-25 فالرسول هنا هو الرسول الملكي جبريل وقال في السورة الاخرى{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43} وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{44} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{45} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{46} فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ{47} الحاقة40-47 فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم واضافه الى هذا الرسول تارة والى هذا تارة لان كلا من الرسولين بلغه واداه ولفظ الرسول يتضمن مرسلا ارسله فكان في اللفظ ما يبين ان الرسول مبلغ له عن غيره لا ان الرسول احدث شيئا منه كما توهمه بعض الناس وظن ان اضافته الى رسول يقتضى انه هو الذي احدث القران العربي فانه قد اضافه الى هذا تارة والى هذا تارة فلو كان المراد الاحداث لتناقض الخبران ولانه اضافه اليه باسم رسول لم يقل انه لقول ملك ولا قول بشر بل قد كفر من قال انه قول البشر في قوله { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً{12} وَبَنِينَ شُهُوداً{13} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً{14} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ{15} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً{16} سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً{17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} سَأُصْلِيهِ سَقَرَ{26} المدثر 11-26 والكلام الذي توعد بسقر من قال انه قول البشر هو الكلام الذي اضافه الى رسول من البشر تارة والى رسول من الملائكة تارة لان المراد هناك انه بلغه والذي كفره قال انه انشأه وانه كلام نفسه سواء كان المراد المعنى او اللفظ او كلاهما فان الذي لعنه الله هو الذي قال ان هذا الا قول البشر فمن قال ان هذا القران قول البشر فهو من جنس قوله من بعض الوجوه ولهذا قال تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}التوبة6 فأخبر ان ما يسمعه المستجير هو كلام الله والمستجير يسمعه بصوت القارىء والصوت صوت القارى والكلام كلام الباري كما قال النبي صلى الله عليه وسلم زينوا القران بأصواتكم وقال لله اشد اذنا الى الرجل الحسن الصوت بالقران من

---

[1] الجواب الصحيح ج: 6 ص: 76

صاحب القينة الى قينته وكذلك ذكر في غير موضع ان الصوت المسموع من العبد هو صوت العبد كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ }الحجرات2 وقال {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ }الحجرات3 وقال لقمان لابنه {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ }لقمان19 وفي سنن ابي داود عن جابر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في الموسم الا رجل يحملني الى قومه لابلغ كلام ربي فان قريشا قد منعوني ان ابلغ كلام ربي عود الى اصل الموضوع فرسل الله وسائط في تبليغ رسالاته كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ }المائدة67 وقال تعالى { إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً{27} لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ{28}الجن27-27 وقال تعالى عن نوح { وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{61} أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي {62} الاعراف61-62 وكذلك قال هود { وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{67} أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي{68}الاعراف 67-68 وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بلغوا عني ولو اية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوا مقعده من النار وفي السنن عن زيد بن ثابت وابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال نضر الله امرا سمع منا حديثا فبلغه الى من يسمعه فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو افقه منه وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في حجة الوداع ليبلغ الشاهد الغائب فرب من مبلغ اوعى من سامع[1]

ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء

قال تعالى { فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ{8} فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ{9} عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ{10} ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً{12} وَبَنِينَ شُهُوداً{13} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً{14} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ{15} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً{16} سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً{17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} سَأُصْلِيهِ سَقَرَ{26} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ{27} لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ{28}المدثر 8-28 فمن قال إن هذا قول البشر كان قوله مضاهيا لقول الوحيد الذي أصلاه الله سقر ومن المعلوم لعامة العقلاء أن من بلغ كلام غيره كالمبلغ لقول النبي صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى إذا سمعه الناس من المبلغ قالوا هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو قال المبلغ هذا كلامي وقولي لكذبه الناس لعلمهم بأن الكلام كلام لمن قاله مبتدئا منشئا لا لمن أداه راويا مبلغا فإذا كان مثل هذا معلوما في تبليغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى أن لا يجعل كلاما لغير الخالق وقد أخبر تعالى بأنه تنزيل منه فقال {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ }الأنعام114 وقال {حم{1} تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ{2} فصلت 1- 2 { تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{1}الزمر 1 فجبريل رسول الله من الملائكة جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس وكلاهما مبلغ له كما قال تعالى {يَا

[1] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 540-543

أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ } المائدة67 وقال {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً {27} لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً{28} الجن27-28 وهو مع هذا كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء كما أن المعلمين له في هذا الزمان والتاليين له في الصلاة أو خارج الصلاة ليس لهم فيه إلا ذلك لم يحدثوا شيئا من حروفه ولا معانيه[1]

من زعم انه كلام البشر فقد كفر

القرآن يتناول معانيه ولفظه ومجموع هذا ليس قولا لغير الله باجماع المسلمين واطلاق القول بان القرآن كلام جبريل أو محمد أو غيرهما من المخلوقين كفر لم يقله أحد من أئمة المسلمين بل عظم الله الانكار على من يقول إنه قول البشر فقال تعالى { فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ{8} فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ{9} عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ{10} ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً{12} وَبَنِينَ شُهُوداً{13} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً{14} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ{15} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً{16} سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً{17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} سَأُصْلِيهِ سَقَرَ{26} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ{27} لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ{28}المدثر 8-28 [2]

فمن قال إنه قول بشر أو قول مخلوق غير البشر فقد كفر و من جعله قول رسول من البشر فقد صدق لأن الرسول ليس له فيه إلا التبليغ و الأدء كما قال تعالى {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}المائدة67 و فى سنن أبي داود عن جابر بن عبدالله أن النبى صلى الله عليه و سلم كان يعرض نفسه على الناس فى الموسم و يقول ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى و الذي إتفق عليه السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق [3]

فقد ذكر أبو جعفر الطحاوي في الاعتقاد الذي قال في اوله ذكر بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري وأبي عبدالله محمد بن الحسن الشيباني قال فيه وان القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولا وأنزله على نبيه وحيا وصدقه المؤمنون على ذلك حقا وأثبتوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية فمن سمعه فزعم انه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله وعابه وأوعده عذابه وتوعده حيث قال {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ }المدثر26 فلما أوعد الله سقر لمن قال {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ }المدثر25 علمنا انه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر وأما أحمد بن حنبل فكلامه في مثل هذا مشهور متواتر وهو الذي اشتهر بمحنة هؤلاء الجهمية فانهم أظهروا القول بانكار صفات الله تعالى وحقائق اسمائه وان القرآن مخلوق حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى ودعوا الناس الى ذلك وعاقبوا من لم يجبهم إما القتل وإما بقطع الرزق وإما بالعزل عن الولاية وإما

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 289

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 559

[3] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 95

بالحبس أو بالضرب وكفروا من خالفهم فثبت الله تعالى الإمام أحمد حتى أخمد الله به باطلهم ونصر اهل الايمان والسنة عليهم وأذلهم بعد العز وأخملهم بعد الشهرة واشتهر عند خواص الأمة وعوامها ان القرآن كلام الله غير مخلوق واطلاق القول ان من قال انه مخلوق فقد كفر وأما الاطلاق القول بان الله لم يكلم موسى فهذه مناقضة لنص القرآن فهو أعظم من القول بإن القرآن مخلوق وهذا بلا ريب يستتاب فإن تاب وإلا قتل فإنه أنكر نص القرآن وبذلك أفتى الأئمة والسلف في مثله والذي يقول القرآن مخلوق هو في المعنى موافق له فلذلك كفره السلف قال البخاري في كتاب خلق الأفعال قال سفيان الثوري من قال القرآن مخلوق فهو كافر قال وقال عبدالله بن المبارك من قال {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا }طه14 مخلوق فهو كافر ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك قال وقال ابن المبارك لا نقول كما قالت الجهمية انه في الأرض ههنا بل على العرش استوى وقيل له كيف نعرف ربنا قال فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وقال من قال لا إله إلا الله مخلوق فهو كافر وانا نحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية قال وقال علي بن عاصم ما الذين قالوا ان لله ولدا اكفر من الذين قالوا ان الله لا يتكلم قال البخاري وكان اسماعيل بن أبي ادريس بسميهم زنادقة العراق وقيل له سمعت احدا يقول القرآن مخلوق فقال هؤلاء الزنادقة قال وقال أبو الوليد سمعت يحيى بن سعيد وذكر له أن قوما يقولون القرآن مخلوق فقال كيف يصنعون ب {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ }الإخلاص1 كيف يصنعون بقوله {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا }طه14 قال وقال ابو عبيد القاسم بن سلام نظرت في كلام اليهود والمجوس فما رأيت قوما أضل في كفرهم منهم وانى لأستجهل من لا يكفرهم الا من لا يعرف كفرهم قال وقال سليمان بن داود الهاشمي من قال القرآن مخلوق فهو كافر وان كان القرآن مخلوقا كما زعموا فلم صار فرعون اولى بإن يخلد في النار إذ قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 وزعموا ان هذا مخلوق والذي قال {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي }طه14 هذا أيضا قد ادعى ما ادعى فرعون فلم صار فرعون اولى أن يخلد في النار من هذا وكلاهما عنده مخلوق فأخبر بذلك ابو عبيد فاستحسنه وأعجبه ومعنى كلام هؤلاء السلف رضى الله عنهم ان من قال ان كلام الله مخلوق خلقه فى الشجرة أو غيرها كما قال هذا الجهمى المعتزلى المسؤول عنه كان حقيقة قوله ان الشجرة هى التى قالت لموسى {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي }طه14 ومن قال هذا مخلوق قال ذلك فهذا المخلوق عنده كفرعون الذى قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 كلاهما مخلوق وكلاما قال ذلك فان كان قول فرعون كفرا فقول هؤلاء أيضا كفر ولا ريب أن قول هؤلاء يؤول الى قول فرعون وان كانوا لا يفهمون ذلك فان فرعون كذب موسى فيما أخبر به من أن ربه هو الأعلى وانه كلمه كما قال تعالى {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ {36} أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً {37} غافر36-37 وهو قد كذب موسى فى ان الله كلمه [1]

استعمال القياس فى الأمور الالهية لا يكون إلا على وجه الأولى

فلما كان فى الأمم كفار ومنافقون يكفرون ببعض الرسالة دون بعض إما فى القدر وإما فى الوصف كما أن فيهم كفار ومنافقون يكفرون بأصل الرسالة وكان فى الكفار بأصل الرسالة من قال أن

[1] مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 507-510 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 292-293

الرسول شاعر وساحر وكاهن ومعلم ومجنون ومفترى كما كان رئيس قريش وفيلسوفها وحكيمها الوليد بن المغيرة الوحيد المذكور فى قوله تعالى { فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ{8} فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ{9} عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ{10} ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً{12} وَبَنِينَ شُهُوداً{13} وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً{14} ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ{15} كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً{16} سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً{17} إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ{25} سَأُصْلِيهِ سَقَرَ{26} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ{27} لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ{28}المدثر 8-28 فإنه صنع صنع الفيلسوف المخالف للرسل فى تفكيره أولا الذى هو طلب الانتقال من تصور طرفى القضية إلى المبادىء الموجبة للتصديق ليظفر بالحد الأوسط ثم قدر ثانيا والتقدير هو القياس وهو الانتقال من المبادىء إلى المطلوب بالقياس المنطقى الشمولى ولعمرى إنه لصواب إذا صحت مقدماته وإن كانت النتيجة فى الأغلب أمورا كلية ذهنية ثبوتها فى الأذهان لا فى الأعيان كالعلوم الرياضية من الأعداد والمقادير فان العدد المجرد عن المعدود والمقدار المجرد عن الأجسام إنما يوجد فى الذهن لكن أنى وأكثر مقدماته فى الالهيات دعاوى يدعى فيها بعموم وأن القضية من المسلمات بلا حجة ومتى لم يكن فى القياس قضية كلية معلومة لم تفد المطلوب وهو يلبسون المهملات التى هى فى معنى الجزئيات بالكليات العامة المسلمات أو يدعى فيها العموم بنوع من قياس التمثيل ومعلوم أنه لا بد فى كل قياس من قضية كلية وعامة القضايا الكلية التى لهم فيها المطالب الالهية لا يعلم كونها كلية عامة إذ عمومها لا يعلم إلا بمجرد قياس التمثيل الذى قد يكون من أفسد القياس المقتضى لتشبيه الله بخلقه كما يقولون الواحد لا يصدر عنه إلا واحد وليس معهم إلا تشبيه خالق السموات والأرض ورب العالمين بالطبائع كطبيعة الماء والنار مع أن الواحد الذى يثبتونه فى الالهيات وفى المنطق أيضا الذين يجعلون قضية الأنواع مركبة منه وهو الجنس و الفصل لا حقيقة لها ولا توجد إلا فى الأذهان لا فى الأعيان وقد بسطنا الكلام على ذلك فى مواضع وبينا أن ما يثبتونه من العقليات التى هي الجواهر العقلية المجردة عن المادة وهى العقل والنفس والمادة والصورة التى ليست بجسم ولا عرض لا حقيقة لها فى الخارج وإنما تقدر فى الأذهان لا فى الأعيان وكذلك ما يثبتونه من الواحد الذى يصفون به واجب الوجود ومن الواحد الذى يجعلون الأنواع نتركب منه إنما يوجد فى الأذهان لا فى الأعيان والقياس العقلى الذى يحتجون به لا بد فيه من قضية كلية والقياس نوعان قياس الشمول و قياس التمثيل والناس متنازعون فى مسمى القياس فقيل هو حقيقة فى التمثيل مجاز فى الشمول كما ذكر ذلك أبو حامد وأبو محمد المقدسى وغيرهما وقيل هو حقيقة فى عكس ذلك كما قاله إبن حزم وغيره من نفاة قياس التمثيل وقيل بل اسم القياس يتناولهما وهذا قول جمهور الناس واسم القياس العقلى يدخل فيه هذا وهذا لكن من الناس من ظن أن قياس التمثيل لا يفيد اليقين ولا يستعمل فى العقليات كما ذهب إليه أبو المعالى وأبو حامد والرازي وأبو محمد والآمدى وآخرون من أهل المنطق وأما الجمهور فعندهم كلا القياسين سواء وهذا هو الصواب فان مآل القياسين إلى شىء واحد وإنما يختلف بترتيب الدليل فإن القائل إذا قال النبيذ المتنازع فيه حرام لأنه مسكر فكان حراما قياسا على خمر العنب فلا بد له أن يثبت أن السكر هو مناط التحريم وهو الذى يسمى فى قياس التمثيل مناطا و علة و أمارة و مشتركا و وضعا ونحو ذلك ولا بد فى القياس الصحيح من أن يقيم دليلا على أن السكر مناط التحريم بحيث إذا وجد السكر وجد التحريم فإذا صاغ الدليل بقياس الشمول فان النبيذ مسكر وكل مسكر حرام فالسكر فى هذا النظم هو الحد الأوسط المكرر وهو العلة فى قياس التمثيل ولا بد له فى هذا القياس من أن يثبت هذه

القضية الكلية الكبرى وهى قوله كل مسكر حرام فما به ثبتت هذه القضية فى هذا النظم يثبت به أنه مناط التحريم فى ذلك النظم لا فرق بينهما وإذا قال القائل إثبات تأثير الوصف وكونه مناط الحكم هو عمدة القياس وهو جواب سؤال المطالبة وبيان كون الوصف بالشمول هو مناط الحكم وهذا لا يثبت إلا بأدلة ظنية قيل له وإثبات عموم القضية الكبرى فى قياس الشمول هو عمدة القياس فان الصغرى فى الغالب تكون معلومة كما يكون ثبوت الوصف فى الفرع معلوما وإذا كان ثبوت الوصف فى الفرع قد يحتاج إلى دليل كما قيل تحتاج المقدمة الصغرى إلى دليل وإثبات المقدمة الكبرى لا يتأتى إلا بأدلة ظنية ونفس ما به يثبت عموم القضية يثبت تأثير الوصف المشترك لا فرق بينهما أصلا واستعمال كلا القياسين فى الأمور الالهية لا يكون إلا على وجه الأولى والأحرى وبهذه الطريقة جاء القرآن وهى طريقة سلف الأمة وأئمتها فان الله سبحانه لا يماثله شيء من الموجودات فى قياس التمثيل ولا أن يدخل فى قياس شمول تتماثل أفراده بل ماثبت لغيره من الكمال الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه فهو أحق به وما نزه عنه غيره من النقائص فهو أحق بالتنزيه منه كما قال تعالى {لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ }النحل60 وقال تعالى {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ }الروم28 وقد بسطنا الكلام على هذا فى غير هذا الموضع وبينا أن ما يستفاد ب القياس الشمولى فى عامة الأمور قد يستفاد بدون ذلك فتعلم أحكام الجزئيات الداخلة فى القياس بدون معرفة حكم القضية الكلية كما إذا قيل الكل أعظم من الجزء والضدان لا يجتمعان فما من كل معين وضدين معنيين إلا وإذا علم أن هذا جزء هذا وان هذا ضد هذا علم أن هذا أعظم من هذا وان هذا لا يجامع هذا بدون أن يخطر بالبال قضية كلية ان كل ضدين لا يجتمعان وان كل كل فهو أعظم من جزء وكذلك إذا قيل النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان فما من نقيضين يعرف أنهما نقيضان إلا ويعرف أنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان بدون أن يستحظر أن كل نقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان فعامة المطالب يستغنى فيها عن القياس المنطقى المتضمن للكبرى الذى لا بد فيه من قضية كلية و الأمور المعينات لا تعلم بمجرد القياس العقلى وإنما يعلم بالقياس القدر المشترك بينها وبين غيرها وهم يسلمون ذلك وبينا أن الأدلة الدالة على الصانع هي آيات تدل بنفسها على نفسه المقدسة وبينا الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس وان الأدلة أكمل وأنفع وطريقة القياس تابعة لها ودونها فى المنفعة والكمال والقرآن جاء بهذه وهذه ومعرفة الالهيات والنبوات وغيرها فتلك الطريقة أكمل وأتم وهؤلاء يزعمون أنه لا ينال مطلوب فطرى إلا بطريقة القياس الذى لابد فيه من قضية كلية والقضية الكلية لا تفيد إلا أمرا كليا عقليا لا تفيد معرفة شيء معين وكل موجود فهو معين فكيف يقول عاقل مع هذا أنه لا ينال علم إلا بهذه الطريق [1]

القرآن هو كلام الله

أن هذا القرآن الذى يقرأه المسلمون هو كلام الله الذى انزله على نبيه كما ثبت ذلك بالنص واجماع المسلمين وقد كفر الله من قال أنه قول البشر ووعده أنه سيصليه سقر فى قوله { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11} المدثر11 الى قوله {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ{18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ{20} ثُمَّ نَظَرَ{21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ{22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ{23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ{24} إِنْ هَذَا إِلَّا

[1] ب مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 343-348

قَوْلُ الْبَشَرِ{25}المدثر18-25 ولا ريب أنه لم يرد بقوله {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ }المدثر25 كما أراده الله بقوله {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }الحاقة40 فانه لو أراد ان البشر بلغوه عن غيرهم كما يتعلمه الناس الناس بعضهم من بعض لم يكن هذا باطلا وانما أراد ان البشر أحدثوه وانشؤوه عنه فمن جعل لفظه ونظمه من احداث محمد فقد جعل نصفه قول البشر ومن جعله من احداث جبريل فقد جعل نصفه قول الملائكة ومن جعله مخلوقا فى الهواء أو غيره جعله كلاما لذلك الهواء وكفر من قال انه قول الملك أو قول الهواء او الشجر بل كفر من قال أنه قول البشر فدل ذلك على أنه ليس شيء من القرآن لا لفظه ولا معناه من قول أحد من المخلوقين ولا من كلامه بل هو كلام الله تعالى وايضا فالاشارة فى قوله { إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} المدثر25 لا تعود الى المعنى دون اللفظ بل اليهما [1]

أصل الإيمان الايمان بما أنزله

الإختلاف فى تنزيله بين المؤمنين والكافرين فإن المؤمنين يؤمنون بما أنزل والكافرون كفروا بالكتاب وبما ارسل الله به رسله {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }غافر70 فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسل من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك والكافرون بجنس الكتاب والرسل من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك وذلك أن الله أرسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم فمن آمن بالرسل آمن بما بلغوه عن الله ومن كذب بالرسل كذب بذلك فالإيمان بكلام الله داخل فى الإيمان برسالة الله إلى عباده والكفر بذلك هو الكفر بهذا فتدبر هذا الأصل فإنه فرقان هذا الاشتباه ولهذا كان من يكفر بالرسل تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر كما أنه قد يكفر برب العالمين مثل فرعون وقومه قال الله تعالى{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ }يونس2 الآية وقال {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ }الأنعام91 إلى آخر الكلام فإن فى هذه الآيات تقرير قواعد وقال عن الوحيد {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ }المدثر25 ولهذا كان أصل الإيمان الايمان بما أنزله قال تعالى { الم{1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ {3}البقرة 1-3 إلى قوله { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ } البقرة4 [2]

الملائكة رسل الله فى تنفيذ أمره الكونى وأمره الدينى

فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله كما قال تعالى { جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً}فاطر1 فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة فإنه قال {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ}الحج75 وملائكة الله لا يحصي عددهم إلا الله كما قال تعالى {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 543

[2] مجموع الفتاوى ج: 12 ص:8- 9

لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ }المدثر31 وقيل لهم الذي في الكتاب والسنة من ذكر الملائكة وكثرتهم أمر لا يحصر حتى قال النبي أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملك قائم أو قاعد أو راكع أو ساجد وقال الله تعالى {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }الشورى5[1]

صفة اهل النار

قال تعالى في صفة اهل النار{ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ{26} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ{27} لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ{28} لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ{29} عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ{30} وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ{31}المدثر26-31 وقال تعالى { فَلْيَدْعُ نَادِيَه{17} سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ{18} العلق17-18 قال غير واحد من الصحابة والتابعين كأبي هريرة وعبد الله بن الحارث وعطاء هم الملائكة وقال قتادة الزبانية في كلام العرب الشرط وقال مقاتل هم خزنة جهنم قال اهل اللغة كابن قتية وغيره هو مأخوذ من الزبن وهو الدفع كأنهم يدفعون اهل النار اليها قال ابن دريد الزبن الدفع يقال ناقة زبون اذا زبنت حالبها دفعته برجلها وتزابن القوم تداراوا واشتقاق الزبانية من الزبن [2]

{وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا }

كان نسخ ما نسخه الله وإنزل القرآن وانهزام المسلمين يوم احد وغير ذلك من مصائب الدنيا رزية في حق من في قلبه مرض قال تعالى {فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ }آل عمران7 وإن كانت هذه الأمور في حق من هداه الله مما يزيدهم الله به علما وإيمانا وهذا كوجود الشياطين من الجن والإنس يرفع الله به درجات أهل الإيمان بمخالفتهم ومجاهدتهم مع ما في وجودهم من الفتنة لمن أضلوه وأغووه وهذا كقوله تعالى {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً }المدثر31 وقوله {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ }البقرة143 وقول موسى { إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء }الأعراف155 وقوله {إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ }القمر27وقوله { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{52} لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ{53} وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 120

[2] الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 498

أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{54}الحج 52- 54 [1]

إنقسم الناس فى الرسل إلى ثلاثة أقسام

إنقسم الناس فى الرسل إلى ثلاثة أقسام مؤمن باطن و ظاهر و كافر مظهر للكفر و منافق مظهر للإيمان مبطن للكفر و من حين هاجر النبى صلى الله عليه و سلم إلى المدينة حصل هذا الإنقسام و أنزل الله تعالى فى أول البقرة أربع آيات فى صفة المؤمنين و آيتين فى صفة الكافرين و بضع عشرة آية فى صفة المنافقين و أما حين كان بمكة و كان المؤمنون مستضعفين فلم يكن أحد يحتاج إلى النفاق بل كان من المؤمنين من يكتم إيمانه من كثير من الناس ومنهم من يتكلم بالكفر مكرها مع طمأنينة قلبه بالإيمان و هذا مؤمن باطنا و ظاهرا فإنه وإن أظهر الكفر لبعض الناس ما أكره عليه أو كتم عنه إيمانه فهو يتكلم بالإيمان فى خلوته و مع من يأمنه و يعمل بما يمكنه و ما عجز عنه فقد سقط عنه و لهذا قال العلماء منهم أحمد بن حنبل لم يكن يمكنهم نفاق إنما كان النفاق بالمدينة و لكن كان بمكة من في قلبه مرض كما قال فى السورة المكية { وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً}المدثر 31 [2]

يحصل اليقين بثلاثة أشياء

وأما اليقين فهو طمأنينة القلب واستقرار العلم فيه وهو معنى ما يقولون ماء يقن إذا استقر عن الحركة وضد اليقين الريب وهو نوع من الحركة والإضطراب يقال رابني يربيني ومنه في الحديث أن النبي مر بظبي حاقف فقال لا يريبه أحد اليقين ينتظم منه أمران علم القلب وعمل القلب فإن العبد قد يعلم علما جازما بأمر ومع هذا فيكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه ولا خالق غيره وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه وقد لا يصحبه العمل بذلك إما لغفلة القلب عن هذا العلم والغفلة هي ضد العلم التام وإن لم يكن ضدا لأصل العلم وأما للخواطر التي تسنح في القلب من الإلتفات إلى الأسباب وإما لغير ذلك وفي الحديث المشهور الذي رواه أبو بكر عن النبي أنه قال سلوا الله اليقين والعافية فما أعطى أحد بعد اليقين شيئا خيرا من العافية فسلوهما الله فأهل اليقين إذا ابتلوا ثبتوا بخلاف غيرهم فإن الإبتلاء قد يذهب إيمانه أو ينقصه قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }السجدة24 ألا ترى إلى قوله تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }آل عمران173 فهذه حال هؤلاء وقال تعالى {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ }المدثر 31 وأما كيف يحصل اليقين فبثلاثة أشياء أحدها تدبر القرآن

---

[1] منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 573-574

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص:503- 504

والثاني تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه حق والثالث العمل بموجب العلم[1]

الإيمان يزيد وينقص

فإن قيل فاذا كان الإيمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فمتى ذهب بعض ذلك بطل الايمان فيلزم تكفير أهل الذنوب كما تقوله الخوارج أو تخليدهم فى النار وسلبهم إسم الإيمان بالكلية كما تقوله المعتزلة وكلا هذين القولين شر من قول المرجئة فإن المرجئة منهم جماعة من العلماء والعباد المذكورين عند الأمة بخير واما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم قيل اولا ينبغى أن يعرف أن القول الذى لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من اهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر فى النار فإن هذا القول من البدع المشهورة وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد فى النار أحد ممن فى قلبه مثقال ذرة من ايمان واتفقوا ايضا على أن نبينا يشفع فيمن ياذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته ففى الصحيحين عنه أنه قال لكل نبى دعوة مستجابة وانى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة وهذه الأحاديث مذكورة فى مواضعها وقد نقل بعض الناس عن الصحابة فى ذلك خلافا كما روى عن ابن عباس أن القاتل لا توبة له وهذا غلط على الصحابة فإنه لم يقل أحد منهم أن النبى لا يشفع لأهل الكبائر ولا قال أنهم يخلدون فى النار ولكن ابن عباس فى احدى الروايتين عنه قال أن القاتل لا توبة له وعن أحمد بن حنبل فى قبول توبة القاتل روايتان ايضا والنزاع فى التوبة غير النزاع فى التخليد وذلك أن القتل يتعلق به حق آدمى فلهذا حصل فيه النزاع وأما قول القائل ان الايمان اذا ذهب بعضه ذهب كله فهذا ممنوع وهذا هو الأصل الذى تفرعت عنه البدع فى الإيمان فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبق منه شيء ثم قالت الخوارج والمعتزلة هو مجموع ما أمر الله به ورسوله وهو الإيمان المطلق كما قاله اهل الحديث قالوا فاذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شئ فيخلد فى النار وقالت المرجئة على إختلاف فرقهم لا تذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئا من الإيمان اذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء فيكون شيئا واحدا يستوى فيه البر والفاجر ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه كقوله يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل وجمهورهم يقولون يزيد وينقص ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما روى عن مالك فى احدى الروايتين ومنهم من يقول يتفاضل كعبدالله بن المبارك وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن ابى جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمى وهو من أصحاب رسول الله قال الإيمان يزيد وينقص قيل له وما زيادته وما نقصانه قال اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه وروى اسماعيل بن عياش عن جرير بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبى الدرداء قال الايمان يزيد وينقص وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد حدثنا جرير بن عثمان قال سمعت أشياخنا أو بعض اشياخنا أن ابا الدرداء قال ان من فقه العبد أن

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 331

يتعاهد ايمانه وما نقص منه ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد الايمان أم ينقص وان من فقه الرجل أن يعلم نزعات الشيطان أنى تأتيه وروى اسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن عبدالله بن ربيعة الحضرمى عن ابى هريرة قال الايمان يزيد وينقص وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن ذر قال كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه هلموا نزدد ايمانا فيذكرون الله عز وجل وقال ابو عبيد فى الغريب فى حديث على أن الايمان يبدو لمظة فى القلب كما ازداد الايمان ازدادت اللمظة يروى ذلك عن عثمان بن عبدالله عن عمرو بن هند الجملى عن على قال الأصمعى اللمظة مثل النكتة أو نحوها وقال أحمد بن حنبل حدثنا وكيع عن شريك عن هلال عن عبدالله بن عكيم قال سمعت إبن مسعود يقول فى دعائه اللهم زدنا ايمانا ويقينا وفقها وروى سفيان الثورى عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال كان معاذ بن جبل يقول لرجل اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى وروى أبو اليمان حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد أن عبدالله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول قم بنا نؤمن ساعة فنحن فى مجلس ذكر وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن كله وصح عن عمار بن ياسر أنه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان الانصاف من نفسه والانفاق من الاقتار وبذل السلام للعالم ذكره البخارى فى صحيحه وقال جندب بن عبدالله وابن عمر وغيرهما تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فإزددنا ايمانا والآثار فى هذا كثيرة رواها المصنفون فى هذا الباب عن الصحابة والتابعين فى كتب كثيرة معروفة قال مالك بن دينار الإيمان يبدو فى القلب ضعيفا ضئيلا كالبقلة فان صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة واماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه أوشك أن ينمو أو يزداد ويصير له اصل وفروع وثمرة وظل الى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال وان صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها أو صبى فذهب بها وأكثر عليها الدغل فأضعفها أو اهلكها أو أيبسها كذلك الإيمان وقال خيثمة بن عبدالرحمن الايمان يسمن فى الخصب ويهزل فى الجدب فخصبه العمل الصالح وجدبه الذنوب والمعاصى وقيل لبعض السلف يزداد الايمان وينقص قال نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال وينقص حتى يصير أمثال الهباء وفى حديث حذيفة الصحيح حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان وفى حديثه الآخر الصحيح تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر اسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الا ما اشرب هواه وفى حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية فانه من أعظم الادلة على زيادة الايمان ونقصانه لانه وصفهم بقوة الايمان وزيادته فى تلك الخصال التى تدل على قوة ايمانهم وتوكلهم على الله فى أمورهم كلها وروى أبو نعيم من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن عبدالله اليزنى عن أبى رافع أنه سمع رجلا حدثه أنه سأل رسول الله عن الإيمان فقال أتحب أن أخبرك بصريح الايمان قال نعم قال اذا أسأت أو ظلمت أحدا عبدك أو أمتك أو احدا من الناس حزنت وساءك ذلك واذا تصدقت أو أحسنت استبشرت وسرك ذلك ورواه بعضهم عن يزيد عمن سمع النبى أنه سأله عن زيادة الايمان فى القلب ونقصانه فذكر نحوه وقال البزار حدثنا محمد بن ابى الحسن البصرى ثنا هانئ بن المتوكل ثنا عبدالله بن سليمان عن اسحاق عن أنس مرفوعا ثلاث من كن فيه استوجب الثواب وإستكمل الايمان خلق يعيش به فى الناس وورع يحجزه عن معصية الله وحلم يرد به جهل الجاهل و أربع من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا فالخصال الاولى تدل على زيادة الإيمان وقوته والاربعة الاخر تدل على ضعفه ونقصانه وقال ابو يعلى الموصلى ثنا عبدالله القواريرى ويحيى بن سعيد قالا ثنا يزيد

بن زريع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا عوف حدثنى عقبة بن عبدالله المزنى قال يزيد فى حديثه فى مسجد البصرة حدثنى رجل قد سماه ونسى عوف اسمه قال كنت بالمدينة فى مسجد فيه عمر بن الخطاب فقال لبعض جلسائه كيف سمعتم رسول الله يقول فى الاسلام فقال سمعته يقول الإسلام بدأ جذعا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سداسيا ثم بازلا فقال عمر فما بعد البزول الا النقصان كذا ذكره أبو يعلى فى مسند عمر وفى مسند هذا الصحابى المبهم ذكره أولى قال أبو سليمان من أحسن فى ليله كوفئ فى نهاره ومن أحسن فى نهاره كوفئ فى ليله والزيادة قد نطق بها القرآن فى عدة آيات كقوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }الأنفال2 وهذه زيادة اذا تليت عليهم الآيات أى وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول وهذا أمر يجده المؤمن اذا تليت عليه الآيات زاد فى قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الايمان ما لم يكن حتى كأنه لم يسمع الآية الا حينئذ ويحصل فى قلبه من الرغبة فى الخير والرهبة من الشر ما لم يكن فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذه زيادة الايمان وقال تعالى {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }آل عمران173 فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازداوا يقينا وتوكلا على الله وثباتا على الجهاد وتوحيدا بأن لا يخافوا المخلوق بل يخافون الخالق وحده وقال تعالى{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ {124} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ{125}التوبة124-125 وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم ايمانا بحسب مقتضاها فان كانت أمرا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة وان كانت نهيا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ولهذا قال {وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ {124}التوبة124 والاستبشار غير مجرد التصديق وقال تعالى {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ }الرعد36 والفرح بذلك من زيادة الايمان قال تعالى {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ }يونس58 وقال تعالى {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ {4} بِنَصْرِ اللَّهِ {5}الروم4 -5 وقال تعالى {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا }المدثر31 وقال {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ }الفتح4 وهذه نزلت لما رجع النبى وأصحابه من الحديبية فجعل السكينة موجبة لزيادة الايمان والسكينة طمأنينة فى القلب غير علم القلب وتصديقه ولهذا قال يوم حنين {ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا }التوبة26 وقال تعالى { ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا }التوبة40 ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار وانما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو فلما أنزل السكينة فى قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم دل على أن الايمان المزيد حال للقلب وصفة له وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم والريب المنافى لليقين يكون ريبا فى العلم وريبا فى طمأنينة القلب ولهذا جاء فى الدعاء المأثور اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا وفى حديث الصديق الذى رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن النبى أنه قال سلوا الله العافية واليقين فما أعطى أحد بعد اليقين شيئا خيرا من العافية فسلوهما الله تعالى فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه وهذا من تمام الايمان بالقدر خيره وشره كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ }التغابن11 قال علقمة ويروى عن إبن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند

الله فيرضى ويسلم وقوله تعالى { يَهْدِ قَلْبَهُۥ }التغابن11 هداه لقلبه هو زيادة فى ايمانه كما قال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى }محمد17 وقال { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى }الكهف13 ولفظ الإيمان أكثر ما يذكر فى القرآن مقيدا فلا يكون ذلك اللفظ متناولا لجميع ما أمر الله به بل يجعل موجبا للوازمه وتمام ما امر به وحينئذ يتناوله الاسم المطلق قال تعالى {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {7} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{8} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ {9}الحديد7 -9 وقال تعالى فى آخر السورة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }الحديد28 وقد قال بعض المفسرين فى الآية الأولى أنها خطاب لقريش وفى الثانية أنها خطاب لليهود والنصارى وليس كذلك فإن الله لم يقل قط للكفار يا ايها الذين آمنوا ثم قال بعد ذلك {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{29} الحديد29 وهذه السورة مدنية باتفاق لم يخاطب بها المشركين بمكة وقد قال {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }الحديد8 وهذا لا يخاطب به كافر وكفار مكة لم يكن أخذ ميثاقهم وانما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له فإن كل من كان مسلما مهاجرا كان يبايع النبى كما بايعه الانصار ليلة العقبة وانما دعاهم الى تحقيق الايمان وتكميله بأداء ما يجب من تمامه باطنا وظاهرا كما نسأل الله ان يهدينا الصراط المستقيم فى كل صلاة وان كان قد هدى المؤمنين للاقرار بما جاء به الرسول جملة لكن الهداية المفصلة فى جميع ما يقولونه ويفعلونه فى جميع أمورهم لم تحصل وجميع هذه الهداية الخاصة المفصلة هى من الإيمان المأمور به وبذلك يخرجهم الله من الظلمات إلى النور[1]

الناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل

فالناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم فى الايمان والتقوى وكذلك يتفاضلون فى عداوة الله بحسب تفاضلهم فى الكفر والنفاق قال الله تعالى {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ }التوبة37 وقال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ }محمد17 وقال تعالى فى المنافقين {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً }البقرة10 فبين سبحانه وتعالى ان الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب ايمانه وقد يكون فيه قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه وقال تعالى {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً }المدثر31 وقال تعالى { لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ }الفتح4[2]

مرض القلوب فساد الاعتقادات وفساد الإرادات

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 222-231

[2] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 175

أن صلاح حال الإنسان في العدل كما ان فساده في الظلم وأن الله سبحانه عدله وسواه لما خلقه وصحة جسمه وعافيته من اعتدال اخلاطه واعضائه ومرض ذلك الانحراف والميل وكذلك استقامة القلب واعتداله واقتصاده وصحته وعافيته وصلاحه متلازمة كقوله تعالى عن المنافقين { وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } المدثر 31 وما ذكر الله من مرض القلوب وشفائها بمنزلة ما ذكر من موتها وحياتها وسمعها وبصرها وعقلها وصممها وبكمها وعماها لكن المقصود مرض القلب فنقول المرض نوعان فساد الحس وفساد الحركة الطبيعية وما يتصل بها من الإرادية وكل منهما يحصل بفقده ألم وعذاب فكما أنه مع صحة الحس والحركة الإرادية والطبيعية تحصل اللذة والنعمة فكذلك بفسادها يحصل الألم والعذاب ولهذا كانت النعمة من النعيم وهو ما ينعم الله به على عباده مما يكون فيه لذة ونعيم وقال التكاثر لتسألن يومئذ عن النعيم أي عن شكره فسبب اللذة إحساس الملائم وسبب الألم إحساس المنافي ليس اللذة والألم نفس الإحساس والإدراك وإنما هونتيجته وثمرته ومقصوده وغايته فالمرض فيه ألم لا بد منه وإن كان قد يسكن احيانا لمعارض راجح فالمقتضى له قائم يهيج بأدنى سبب فلا بد في المرض من وجود سبب الألم وإنما يزول الألم بوجود المعارض والراجح ولذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه أعني ألمه ولذته النفسانيين وإن كان قد يحصل فيه من الألم من جنس ما يحصل في سائر البدن بسبب مرض الجسم فذلك شيء آخر فلذلك كان مرض القلب وشفاؤه اعظم من مرض الجسم وشفائه فتارة يكون من جملة الشبهات ففي قلوب المنافقين المرض من هذا الوجه من جهة فساد الاعتقادات وفساد الإرادات فكما أن الإنسان إذا صار لا يسمع بأذنه ولا يبصر بعينه كان ذلك مرضا مؤلما له بما يفوته من المصالح ويحصل له من المضار فكذلك إذا لم يسمع ولم يبصر ولم يعلم بقلبه الحق من الباطل ولم يميز بين الخير والشر والعي والرشاد كان ذلك من أعظم أمراض قلبه وألمه[1]

مرض القلوب وشفائها

قال الله تعالى عن المنافقين {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً } البقرة10 وقال تعالى {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ } الحج53 وقال {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً } الأحزاب60 وقال { وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً } المدثر 31 وقال تعالى {قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ }يونس57 وقال {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً }الإسراء82 وقال { وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ {14} وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ {15}التوبة14 -15 و مرض البدن خلاف صحته وصلاحه وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية فادرا كه إما ان يذهب كالعمى والصمم واما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مرا وكما يخيل اليه أشياء لا حقيقة لها فى الخارج وأما فساد حركته الطبيعية فمثل ان تضعف قوته عن الهضم او مثل ان يبغض الأغذية التى يحتاج اليها ويحب الأشياء التى تضره ويحصل له من الآلام بحسب ذلك ولكن مع ذلك المرض

---

[1] أمراض القلوب ج: 1 ص: 29

لم يمت ولم يهلك بل فيه نوع قوة على إدراك الحركة الارادية في الجملة فيتولد من ذلك ألم يحصل فى البدن إما بسبب فساد الكمية او الكيفية فالأول اما نقص المادة فيحتاج الى غذاء واما بسبب زياداتها فيحتاج الى استفراغ و الثانى كقوة فى الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال فيداوى فصل وكذلك مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسر به تصوره وإرادته فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب كما فسر مجاهد وقتادة قوله فى قلوبهم مرض اى شك وتارة وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله فيطمع الذى فى قلبه مرض ولهذا صنف الخرائطى كتاب اعتلال القلوب اى مرضها واراد به مرضها بالشهوة والمريض يؤذي الصحيح فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التى لايقوى عليها لضعفه بالمرض والمرض فى الجملة يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوى والصحة تحفظ بالمثل وتزال بالضد والمرض يقوى بمثل سببه ويزول بضده فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد ضعف قوته حتى ربما يهلك وان حصل له ما يقوى القوة ويزيل المرض كان بالعكس و مرض القلب ألم يحصل فى القلب كالغيظ من عدو استولى عليك فان ذلك يؤلم القلب قال الله تعالى { وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ {14} وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ {15}التوبة14 -15 فشفاؤهم يزوال ما حصل فى قلوبهم من الألم ويقال فلان شفى غيظه وفى القود استشفاء اولياء المقتول ونحو ذلك فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن وكل هذه آلام تحصل فى النفس وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب قال النبى هلا سألوا إذا لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال والشاك فى الشئ المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ويقال للعالم الذى أجاب بما يبين الحق قد شفانى بالجواب والمرض دون الموت فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل فله موت ومرض وحياة وشفاء وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه فلهذا مرض القلب اذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه وان حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحة وشفائه قال تعالى{لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ }الحج53 لأن ذلك أورث شبهة عندهم والقاسية قلوبهم ليبسها فاولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض فصار ما لقى الشيطان فتنة لهم وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الايمان فصار فتنة لهم وقال {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ }الأحزاب60 كما قال { وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ }المدثر31 لم تمت قلوبهم كموت الكفار والمنافقين وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين بل فيها مرض شبهة وشهوات وكذلك { فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ }الأحزاب32 وهو مرض الشهوة فان القلب الصحيح لوتعرضت له المرأة لم يلتفت اليها بخلاف القلب المريض بالشهوة فانه لضعفه يميل الى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه فذا خضعن بالقول طمع الذى فى قلبه مرض والقرآن شفاء لما فى الصدور ومن فى قلبه امراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات مايزيل الحق من الباطل فيزيل امراض الشبهة المفسدة للعلم والتصوير والأدراك بحيث يرى الأشياء على ماهى عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التى فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغى بعد ان كان مريدا للغى مبغضا للرشاد فالقرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسده حتى يصلح القلب فتصلح ارادته ويعود الى فطرته التى فطر عليها كما يعود البدن الى الحال الطبيعى ويغتذى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يغتذى البدن بما ينميه ويقومه فإن زكاة القلب مثل نماء البدن و الزكاة فى اللغة النماء والزيادة فى الصلاح يقال زكا الشئ اذا نما فى

الصلاح فالقلب يحتاج ان يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن ان يربى بالأغذية المصلحة له ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا و الصدقة لما كانت تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار صار القلب يزكو بها وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب قال الله تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا }التوبة103 وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب وكذلك ترك المعاصى فانها بمنزلة الأخلاط الرديئة فى البدن ومثل الدغل فى الزرع فاذا استفرغ البدن من الأخلاط الردئية كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعه واستراحت فينمو البدن وكذلك القلب اذا تاب من الذنوب كتن استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا فاذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للاعمال الصالحة واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التى كانت فيه فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل قال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً }النور21 وقال تعالى { وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ }النور28 وقال {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }النور30 وقال تعالى{ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10} الشمس 9-10 وقال تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15}الاعلى 14-15 وقال تعالى {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى }عبس3 وقال تعالى { فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19}النازعات18-19 فالتزكية وان كان اصلها النماء والبركة وزيادة الخير فانما تحصل بازالة الشر فلهذا صار التزكى يجمع هذا وهذا وقال { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7}فصلت6-7 وهى التوحيد والايمان الذى به يزكو القلب فانه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب وإثبات الحق فى القلب وهو حقيقة لا إله إلا الله وهذا أصل ما تزكو به القلوب والتزكية جعل الشئ زكيا إنما فى ذاته وإما فى الاعتقاد والخبر [1]

مرض القلب يوجب الريب فى الأنباء الصادقة

قال تعالى { وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ }المدثر31 قال الله تعالى {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً }الأحزاب12 فالذين فى قلوبهم مرض فقد تكرر ذكرهم فى هذه السورة فذكروا هنا وفى قوله {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ }الأحزاب60 وفى قوله {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ }الأحزاب32 وذكر الله مرض القلب فى مواضع فقال تعالى{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ }الأنفال49 والمرض فى القلب كالمرض فى الجسد فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والإعتدال من غير موت فكذلك قد يكون فى القلب مرض يحيله عن الصحة والإعتدال من غير أن

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 92-97 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 3 -5

يموت القلب سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه أو أفسد عمله وحركته وذلك كما فسروه هو من ضعف الإيمان إما بضعف علم القلب وإعتقاده وإما بضعف عمله وحركته فيدخل فيه من ضعف تصديقه ومن غلب عليه الجبن والفزع فإن أدواء القلب من الشهوة المحرمة والحسد والجبن والبخل وغير ذلك كلها أمراض وكذلك الجهل والشكوك والشبهات التى فيه وعلى هذا فقوله { فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ }الأحزاب32 هو إردة الفجور وشهوة الزنا كما فسروه به ومنه قول النبى وأى داء أدوأ من البخل وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما فى الصدور وقال النبى صلى الله عليه وسلم إنما شفاء العى السؤال وكان يقول فى دعائه اللهم إنى اعوذ بك من منكرات الاخلاق والأهواء والأدواء ولن يخاف الرجل غير الله الا لمرض فى قلبه كما ذكروا ان رجلا شكا الى احمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال لو صححت لم تخف احدا اى خوفك من اجل زوال الصحة من قلبك ولهذا اوجب الله على عباده ان لا يخافوا حزب الشيطان بل لا يخافون غيره تعالى فقال {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }آل عمران175 اى يخوفكم اولياءه وقال لعموم بنى اسرائيل تنبيها لنا { وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }البقرة40 وقال{ فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ }المائدة44 وقال { لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي }البقرة150 وقال تعالى {الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ }المائدة3 وقال {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ }التوبة18 وقال {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ }الأحزاب39 وقال {أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }التوبة13 فدلت هذه الآية وهى قوله تعالى {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ }الأنفال49 على ان المرض والنفاق فى القلب يوجب الريب فى الأنباء الصادقة التى توجب امن الانسان من الخوف حتى يظنوا انها كانت غرورا لهم [1]

{ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ }

إن كل ما فى الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته و قدرته و ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع و يخفض و يرفع و يعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدى و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد فى السماء و هو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاغه و هو الذى حبب إلى المؤمنين الإيمان و زينه فى قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون وهو الذي جعل المسلم مسلما و المصلي مصليا قال الخليل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ }البقرة128 و قال {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي }إبراهيم40 و قال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا }السجدة24 و قال عن آل فرعون {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ }القصص41 و قال تعالى { إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{21} المعارج19-21 و قال {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 447-449

}هود37 و قال {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ }هود38 والفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبر الله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله {وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ }يس42 و قال {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ }النحل80 الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم وقال تعالى {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{95} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{96}الصافات95 -96 فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبني دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى { وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}المدثر31 وقال { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً }الكهف17 و قال {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً }الأنعام125 و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما بفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ }النمل88 و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى {وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا }البقرة164 و قال { فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ }الأعراف57 و قال تعالى {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ }المائدة16 [1]

{ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ }

قوله تعالى { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ }المدثر31 و قوله لما سألوه عن الروح { وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }الإسراء85 فهذا فيه إخبارنا بأن لله مخلوقات لا نعلمها أو نعلم جنسهم و لا نعلم قدرهم أو نعلم بعض صفاتهم دون بعض[2]

معرفة ملائكته و صفاتهم و أقدارهم و كيف يدبر بهم أمر السماء و الأرض [3]

الملائكة الذين هم عباد الرحمن الذين يدبر بهم أمر السماء والأرض وأولئك لا يعلم عددهم الا الله ولا يعلم صفتهم غيره ولا يعلم كيف يأمرهم يفعلون الا هو قال تعالى { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ }المدثر31 وكل من الملائكة وان علم حال نفسه وغيره فلا يعلم جميع الملائكة ولا جميع ما خلق الله من ذلك [4]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 78-80

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 421

[3] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 379

[4] مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 234

وماله من الجنود الذين يستعملهم فى أفعاله فلا يعلمهم إلا هو { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ }المدثر31 وهذا من تأويل المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله[1]

و قوله { وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً }الفرقان38 قد علم المراد بهذا الخطاب و أن الله خلق قرونا كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله كما قال { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ }المدثر31 [2]

علم إستأثر الله به وعلم علمه بعض عباده

و قد إستدل بعضهم بأن الله لم ينف عن غيره علم شيء إلا كان منفردا به كقوله {قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ }النمل65 و قوله { لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ }الأعراف187 و قوله { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ }المدثر31 فيقال ليس الأمر كذلك بل هذا بحسب العلم المنفي فإن كان مما إستأثر الله به قيل فيه ذلك و إن كان مما علمه بعض عباده ذكر ذلك كقوله { وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ }البقرة255 و قوله {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً }الجن26 الى قوله{ رَصَداً }الجن27 و قوله { قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ }الرعد43 و قوله{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ }آل عمران18 و قوله {لَّـكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ }النساء166 الى قوله { شَهِيداً }النساء166 و قوله { قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ }الكهف22 و قال للملائكة { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }البقرة30 و قالت الملائكة{ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا }البقرة32 و فى كثير من كلام الصحابة الله و رسوله أعلم و فى الحديث المشهور أسألك بكل إسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو إستأثرت به فى علم الغيب عندك وقد قال تعالى { فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ }النساء59 و أول النزاع النزاع في معاني القرآن فإن لم يكن الرسول عالما بمعانيه إمتنع الرد إليه و قد إتفق الصحابة و التابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن و تبينه و تدل عليه و تعبر عن مجمله و أنها تفسر مجمل القرآن من الأمر و الخبر[3]

التذكير عام وخاص

أن التعليم والتذكير والإنذار والهدى ونحو ذلك له فاعل وله قابل فالمعلم المذكر يعلم غيره ثم ذلك الغير قد يتعلم ويتذكر وقد لا يتعلم ولا يتذكر فإن تعلم وتذكر فقد تم التعليم والتذكير وإن لم يتعلم ولم يتذكر فقد وجد أحد طرفيه وهو الفاعل دون المحل القابل فيقال في مثل هذا علمته فما تعلم وذكرته فما تذكر وأمرته فما أطاع وقد يقال ما علمته وما ذكرته لأنه لم يحصل تاما ولم يحصل مقصوده فينفى لإنتفاء كماله وتمامه وإنتفاء فائدته بالنسبة إلى المخاطب السامع وإن كانت الفائدة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 68

[22]ب مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 417

[3] مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 430-432

حاصلة للمتكلم القائل المخاطب فحيث خص بالتذكير والإنذار ونحوه المؤمنون فهم مخصوصون بالتام النافع الذي سعدوا به وحيث عمم فالجميع مشتركون في الإنذار الذي قامت به الحجة على الخلق سواء قبلوا أو لم يقبلوا وهذا هو الهدى المذكور في قوله {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى }فصلت17 فالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد العام المشترك وهو كالإنذار العام والتذكير العام وهنا قد هدى المتقين وغيرهم كما قال {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }الرعد7 وأما قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 فالمطلوب الهدى الخاص التام الذي يحصل معه الإهتداء كقوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 وقوله {فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ }الأعراف30 وقوله { فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ }النحل37 وقوله {يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ }المائدة16 وهذا كثير فى القرآن وكذلك الإنذار قد قال {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً }مريم97 وقال تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ }يونس2 وقال في الخاص {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا }النازعات45 {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ }يس11 فهذا الإنذار الخاص وهو التام النافع الذى إنتفع به المنذر والإنذار هو الإعلام بالمخوف فعلم المخوف فخاف فآمن وأطاع وكذلك التذكير عام وخاص فالعام هو تبليغ الرسالة إلى كل أحد وهذا يحصل بإبلاغهم ما أرسل به من الرسالة قال تعالى {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ {86} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{87}ص86-87 وقال تعالى { وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ }المدثر31 وقال تعالى {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ }التكوير27 ثم قال {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }التكوير28 فذكر العام والخاص[1]

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

قال تعالى { وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}المدثر31 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تناول العلم الذى بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما فى قوله {اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ }الفاتحة6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ }البقرة2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا }الأعراف43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء كما فى قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }الأنعام87 وكما فى قوله {شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ}النحل121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ }الشورى13 وكذلك قوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ }التوبة33 والهدى هنا هو الايمان ودين

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 154

الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{71} الصافات69 -71 وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{68}الأحزاب67 -68 وقوله {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }طه123 ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى }النجم2 وفى قوله {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ }الفاتحة7 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ }القمر47 [1]

لطائف لغوية

1-فإن أهل اللغة يسمون بالواحد والوحيد والأحد في النفي لما يشار إليه ويميز الحس منه شيئا من شيء قال تعالى {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً }المدثر11 فسمى الإنسان وحيدا [2]

2-قال تعالى { وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}المدثر31 والملائكة وسائر العالمين جنوده تعالى[3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

[2] الجواب الصحيح ج: 4 ص: 435

[3] الجواب الصحيح ج: 3 ص: 448

المدثر 32-48

{ كَلَّا وَالْقَمَرِ{32} وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ{33} وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ{34} إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ{35} نَذِيراً لِّلْبَشَرِ{36} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ{37} كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ{38} إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ{39} فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ{40} عَنِ الْمُجْرِمِينَ{41} مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ{48}

ان للحسنة لنورا فى القلب

قال تعالى {كَلَّا وَالْقَمَرِ{32} وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ{33} وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ{34} إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ{35} نَذِيراً لِّلْبَشَرِ{36} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ{37} كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ{38}المدثر 32-38 العدل هو الاعتدال والاعتدال هو صلاح القلب كما ان الظلم فساده ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه والظلم خلاف العدل فلم يعدل على نفسه بل ظلمها فصلاح القلب فى العدل وفساده فى الظلم واذا ظلم العبد نفسه فهو الظالم وهو المظلوم كذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليه فمنه العمل وعليه تعود ثمرة العمل من خير وشر قال تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}البقرة286 والعمل له اثر فى القلب من نفع وضر وصلاح قبل اثره فى الخارج فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها قال تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا }الجاثية15 وقال تعالى {إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا }الإسراء7 قال بعض السلف ان للحسنة لنورا فى القلب وقوة فى البدن وضياء فى الوجه وسعة فى الرزق ومحبة فى قلوب الخلق وان للسيئة لظلمة فى القلب وسوادا فى الوجه ووهنا فى البدن ونقصا فى الرزق وبغضا فى قلوب الخلق وقال تعالى { كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ }الطور21 وقال تعالى {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ }المدثر38 وقال {وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ }الأنعام70 و تبسل أى ترتهن وتحبس وتؤسر كما ان الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه والمرض انما هو باخراج المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل اليه لكن الأمثل فالأمثل فهكذا صحة القلب وصلاحه فى العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف والعدل المحض فى كل شئ متعذر علما وعملا

ولكن الامثل فالأمثل ولهذا يقال هذا أمثل ويقال للطريقة السلفية الطريقة المثلى وقال تعالى {وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ }النساء129 [1]

الايمان قول وعمل

الايمان قولا وعملا ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنا إيمانا ثابتا فى قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ولا يصوم من رمضان ولا يؤدي لله زكاة ولا يحج الى بيته فهذا ممتنع ولا يصدر هذا إلا مع نفاق فى القلب وزندقة لا مع إيمان صحيح ولهذا انما يصف سبحانه بالامتناع من السجود الكفار كقوله { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ{42} خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ{43}القلم 42-43 وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وغيرهما فى الحديث الطويل حديث التجلي أنه إذا تجلى تعالى لعباده يوم القيامة سجد له المؤمنون وبقي ظهر من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة مثل الطبق لا يستطيع السجود فإذا كان هذا حال من سجد رياء فكيف حال من لم يسجد قط وثبت أيضا فى الصحيح أن النار تأكل من ابن آدم كل شيء الا موضع السجود فان الله حرم على النار أن تأكله فعلم أن من لم يكن يسجد لله تأكله النار كله وكذلك ثبت فى الصحيح أن النبى يعرف أمته يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فدل على أن من لم يكن غرا محجلا لم يعرفه النبى فلا يكون من أمته وقوله تعالى { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{45} كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ{46} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{47} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ{48} المرسلات 45-48 وقوله تعالى { فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ{22} وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ{23} الانشقاق 20-23 وكذلك قوله تعالى { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{31} وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{32} القيامة 31-32 وكذلك قوله تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} المدثر 42-46 فوصفه بترك الصلاة كما وصفه بترك التصديق ووصفه بالتكذيب والتولي و المتولي هو العاصي الممتنع من الطاعة كما قال تعالى {قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً }الفتح16 وكذلك وصف أهل سقر بأنهم لم يكونوا من المصلين وكذلك قرن التكذيب بالتولي فى قوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9} عَبْداً إِذَا صَلَّى{10} أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{11} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{12} أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{13} أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{14} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16} العلق 9-16 أيضا فى القرآن علق الاخوة فى الدين على نفس اقام الصلاة وإيتاء الزكاة كما علق ذلك على التوبة من الكفر فاذا انتفي ذلك انتفت الاخوة و أيضا فقد ثبت عن النبى أنه قال العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر وفى المسند من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه الذمة و أيضا فإن شعار المسلمين الصلاة ولهذا يعبر عنهم بها فيقال اختلف أهل الصلاة وإختلف أهل القبلة

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 98-99 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 7

والمصنفون لمقالات المسلمين يقولون مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين وفى الصحيح من صلى صلاتنا وإستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ما لنا وعليه ما علينا وأمثال هذه النصوص كثيرة فى الكتاب والسنة [1]

الأعمال هى سبب فى الثواب والعقاب

الأعمال هي سبب فى الثواب و العقاب فلو قال قائل إن الله أخرج آدم من الجنة بلا ذنب و أنه قدر ذلك أو قال إنه غفر لآدم بلا توبة و إنه علم ذلك كان هذا كذبا و بهتانا بخلاف ما إذا قال {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ }البقرة37 فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة فإنه يكون صادقا فى ذلك و الله سبحانه علم مايكون من آدم قبل أن يكون و هو عالم به بعد أن كان و كذلك كل ما أخبربه من قصص الأنبياء فإنه علم أنه أهلك نوح وعاد وثمود وفرعون و لوط و مدين و غيرهم بذنوبهم و أنه نجى الأنبياء و من إتبعهم بإيمانهم و تقواهم كما قال {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }الأعراف165 و كذلك خبره عما يكون من السعادة و الشقاوة بالأعمال كقوله {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ }الحاقة24 و قوله تعالى {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }الزخرف72 و قوله { كَلَّا وَالْقَمَرِ{32} وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ{33} وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ{34} إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ{35} نَذِيراً لِّلْبَشَرِ{36} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ{37} كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ{38} إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ{39} فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ{40} عَنِ الْمُجْرِمِينَ{41} مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ{48}المدثر 32-48 و أمثال هذا فى القرآن كثير جدا بين سبحانه فيما يذكره من سعادة الآخرة و شقاوتها أن ذلك كان بالأعمال المأمور بها و المنهي عنها كما يذكر نحو ذلك فيما يقضيه من العقوبات و المثوبات فى الدنيا أيضا [2]

تحريم أكل أموال الناس بالباطل

قال تعالى { كَلَّا وَالْقَمَرِ{32} وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ{33} وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ{34} إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ{35} نَذِيراً لِّلْبَشَرِ{36} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ{37} كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ{38} إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ{39} فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ{40} عَنِ الْمُجْرِمِينَ{41} مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ{48}المدثر 32-48 أن الله حرم فى كتابه أكل أموالنا بيننا بالباطل و ذم الأحبار و الرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل و ذم اليهود على أخذهم الربا و قد نهوا عنه و أكلهم أموال الناس بالباطل و هذا يعم كل ما يؤكل بالباطل فى المعاوضات و التبرعات و ما يؤخذ بغير رضا المستحق

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 7 ص:611- 619

[2] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 278

و الاستحقاق و أكل المال بالباطل فى المعاوضة نوعان ذكرهما الله في كتابه هما الربا و الميسر فذكر تحريم الربا الذي هو ضد الصدقة في آخر سورة البقرة و سورة آل عمران و الروم و المدثر و ذم اليهود عليه في سورة النساء و ذكر تحريم الميسر فى سورة المائدة [1]

لفظ المسكين اذا أطلق تناول الفقير

قال تعالى { وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ}المدثر 44 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله { وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}البقرة271 وقوله { فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ }المائدة89 والثانى كقوله {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ }التوبة60 [2]

ففى الحديث الصحيح أنه قال ليس المسكين هذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنا يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافا فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج وكان ذلك مشهورا عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال فبين النبى صلى الله عليه وسلم أن الذى يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له والسؤال له بمنزلة الحرفة وهو وإن كان مسكينا يستحق من الزكاة اذا لم يعط من غيرها كفايته فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكينا وانما المسكين المحتاج الذى لا يسأل ولا يعرف فيعطى فهذا هو الذى يجب أن يقدم فى العطاء فانه مسكين قطعا وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله[3]

يوم الدين

قال تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ{48}المدثر 42-48 أن أسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل وهكذا الدين الذي يدين به الناس في الباطن والظاهر لا بد فيه من الحب والخضوع بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم فإنها قد تكون خضوعا ظاهرا فقط والله سبحانه وتعالي سمى يوم القيامة يوم الدين كما قال {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }الفاتحة4 وهو كما روى عن ابن عباس وغيره من السلف يوم يدين الله العباد بأعمالهم إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلهذا من قال هو يوم الحساب ويوم الجزاء فقد ذكر بعض صفات الدين قال تعالي { كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ{9} وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10} كِرَاماً كَاتِبِينَ{11} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14} يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ{15} وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ{16} وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{17}

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 22

[2] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

[3] مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 301

ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{18} يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ{19} الانفطار9-19
وقال تعالي { فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{86} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{87} الواقعة86-87 أي مقهورين ومدبرين ومجزيين[1]

اليقين هنا الموت

قال تعالى {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ }الحجر99 قال الحسن البصرى ان الله لم يجعل لعمل المؤمنين اجلا دون الموت وقرأ قوله {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ }الحجر99 وذلك ان اليقين هنا الموت وما بعده باتفاق علماء المسلمين وهؤلاء من المستيقنين وذلك مثل قوله { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47}المدثر42-47 فهذا قالوه وهم فى جهنم واخبروا أنهم كانوا على ما هم عليه من ترك الصلاة والزكاة والتكذيب بالآخرة والخوض مع الخائضين حتى اتاهم اليقين ومعلوم انهم مع هذا الحال لم يكونوا مؤمنين بذلك فى الدنيا ولم يكونوا مع الذين قال الله فيهم { وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ }البقرة4 وإنما اراد بذلك انه أتاهم ما يوعدون وهو اليقين ومنه قول النبى فى الحديث الصحيح لما توفي عثمان بن مظعون وشهدت له بعض النسوة بالجنة فقال لهم النبى وما يدريك انى والله وانا رسول الله ما أدرى ما يفعل بى وقال اما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه أى اتاه ما وعده وهو اليقين و يقين على وزن فعيل سواء كان فعيل بمعنى مفعول أى الموت كالحبيب والنصيح والذبيح أو كان مصدرا وضع موضع المفعول كقوله {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ }لقمان11 وقوله {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ}النحل1 وقوله ضرب الامير وغفر الله لك قيل وقولهم قدرة عظيمة وامثال ذلك فانه كثير فعلى التقديرين المعنى لا يختلف بل اليقين هو ما وعد به العباد من أمر الآخرة وقوله {حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ }الحجر99 كقولك يأتيك ما توعد [2]

الشفاعة نوعان

الشفاعة نوعان أحدهما الشفاعة التى نفاها الله تعالى كالتى أثبتها المشركون ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة وضلالهم وهى شرك والثانى أن يشفع الشفيع بإذن الله وهذه التى أثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ولهذا كان سيد الشفعاء إذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتى ويسجد قال فأحمد ربى بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن فيقال أى محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فاذا أذن له فى الشفاعة شفع لمن أراد الله أن يشفع فيه [3]

---

[1] قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 35

[2] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 420 و مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 504 و الاستقامة ج: 1 ص: 418

[3] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 332

{فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ }

فالشفاعة المنفية فى القرآن كقوله تعالى {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ }المدثر48 وأمثال ذلك واحتج بكثير من الخوارج والمعتزلة على منع الشفاعة لأهل الكبائر إذ منعوا أن يشفع لمن يستحق العذاب أو أن يخرج من النار من يدخلها ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب فى زيادة الثواب ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة إثبات الشفاعة لأهل الكبائر والقول بأنه يخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان وأيضا فالأحاديث المستفيضة عن النبى فى الشفاعة فيها استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم وفيهم المؤمن والكافر وهذا فيه وع شفاعة للكفار وأيضا ففى الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشىء فإنه يحوطك ويغضب لك قال نعم هو فى ضحضاح من نار ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار وعن عبد الله بن الحارث قال سعت العباس يقول قلت يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك قال نعم وجدته فى غمرات من نار فأخرجته الى ضحضاح وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ذكر عنده عمه أبو طالب فقال لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه فهذا نص صحيح صريح لشفاعته فى بعض الكفار أن يخفف عنه العذاب بل فى أن يجعل أهون أهل النار عذابا وهذا السؤال الثانى يضعف جواب من تأول نفى الشفاعة على الشفاعة للكفار وإن الظالمين هم الكافرون فيقال الشفاعة المنفية هى الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق وهى أن يشفع الشفيع الى غيره ابتداء فيقبل شفاعته فأما إذا أذن له فى أن يشفع فشفع لم يكن مستقلا بالشفاعة بل يكون مطيعا له أى تابعا له فى الشفاعة وتكون شفاعته مقبولة ويكون الأمر كله للآمر المسؤل وقد ثبت بنص القرآن فى غير آيه أن أحدا لا يشفع عنده إلا بإذنه كما قال تعالى { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ }البقرة255 وقال {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً }طه109 وقال { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى }الأنبياء28 وأمثال ذلك والذى يبيين أن هذه هى الشفاعة المنفية أنه قال {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }الأنعام51 وقال تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ }السجدة4 فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولى ولا شفيع وأما نفى الشفاعة بدون إذنه فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه كما أن الولاية التى بإذنه ليست من دونه كما قال تعالى {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ{55} وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ{56} المائدة55 -56 وأيضا فقد قال { أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ{43} قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{44} الزمر 43-44 فذم الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأخبر أن لله الشفاعة جميعا فعلم أن الشفاعة منتفية عن غيره إذ لا يشفع أحد الا بإذنه وتلك فهى له وقد قال {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }يونس18 يوضح ذلك أنه نفى يؤمئذ الخلة بقوله { مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ }البقرة254 ومعلوم أنه إنما نفى الخلة المعروفة ونفعها المعروف كما ينفع الصديق الصديق فى الدنيا كما قال { وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{17} ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{18} يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ{19} الانفطار 17-19 وقال {لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ{15} يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ{16} غافر16 لم ينف أن

يكون فى الآخرة خلة نافعة بإذنه فإنه قد قال { هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{66} الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ{67} يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ{68} الزخرف 66-68 الآيات وقد قال النبى يقول الله تعالى حقت محبتى للمتحابين فى ويقول الله تعالى أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى فتعين أن الأمر كله عائد الى تحقيق التوحيد وأنه لا ينفع أحد ولا يضر الا بإذن الله وأنه لا يجوز أن يعبد أحد غير الله ولا يستعان به من دون الله وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله ويتبرأ كل مدع من دعواه الباطلة فلا يبقى من يدعى لنفسه معه شركا فى ربوبيته أو الهيته ولا من يدعى ذلك لغيره بخلاف الدنيا فإنه وإن لم يكن رب ولا اله الا هو فقد اتخذ غيره ربا والها وادعى مدعون وفى الدنيا يشفع الشافع عند غيره وينتفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له فى الشفاعة ويكون خليله فيعينه ويفتدى نفسه من الشر فقد ينتفع بالنفوس والأموال فى الدنيا والنفوس ينتفع بها تارة بالإستقلال وتارة بالإعانة وهى الشفاعة والأموال بالفداء فنفى الله هذه الأقسام الثلاثة قال تعالى {لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ }البقرة48 وقال { لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ }البقرة254 كما قال { لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إ }لقمان33 فهذا هذا والله أعلم وعاد ما نفاه الله من الشفاعة الى تحقيق أصلى الإيمان وهى الإيمان بالله وباليوم الآخر التوحيد والمعاد كما قرن بينهما فى مواضع كثيرة كقوله {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ}البقرة8 وقوله {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ }البقرة156 وقوله {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }لقمان28 وقوله { وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }البقرة28 وأمثال ذلك [1]

شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم نافعة فى الدنيا والدين

وأما شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ودعاؤه للمؤمنين فهى نافعة فى الدنيا والدين باتفاق المسلمين وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة فى زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين وقد قيل إن بعض أهل البدعة ينكرها وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية وقال هؤلاء من يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها وعند هؤلاء ما ثم إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة ولا يجتمع عندهم فى الشخص الواحد ثواب وعقاب وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم فيقرون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبى أن الله يخرج من النار قوما بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم يخرجهم بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ويخرج آخرين بشفاعة غيره ويخرج قوما بلا شفاعة واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ }البقرة48 وبقوله { وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ }البقرة123 وبقوله { مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ }البقرة254 وبقوله { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 116

يُطَاعُ }غافر18 وبقوله {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ }المدثر48 وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيئان أحدهما أنها لا تنفع المشركين كما قال تعالى فى نعتهم { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ{48}المدثر 42-48 فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفارا والثانى أنه يراد بذلك نفى الشفاعة التى يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع اليه شفاعة شافع لحاجته اليه رغبة ورهبة وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ويصورون تماثليهم فيستشفعون بها ويقولون هؤلاء خواص الله فنحن نتوسل الى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا كما يتوسل الى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب الى الملوك من غيرهم فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج الى إجابة شفاعته رغبة ورهبة فأنكر الله هذه الشفاعة فقال تعالى { مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ}البقرة255 وقال {وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى }النجم26 وقال عن الملائكة { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ{26} لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ{27} يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ{28} الانبياء 26-28 وقال {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ {22} وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ {23} سبأ22-23 وقال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }يونس18 وقال تعالى {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }الأنعام51 وقال تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ }السجدة4

وقال تعالى {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }الزخرف86 وقال تعالى {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ }الأنعام94 وقال تعالى {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ{43} قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{44} وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ{45} الزمر43-45 وقال تعالى { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً{108} يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً{109} طه108-109 وقال صاحب يس {وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{22} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{23} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{24} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{25} يس 22-25 فهذه الشفاعة التى أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثليهم وقالوا استشفاعنا بتماثليهم استشفاع بهم وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا الى الله وصوروا تماثليهم فعبدوهم كذلك وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها قال الله تعالى عن قوم نوح {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا

سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً {23} وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً {24} نوح23 -24 قال بن عباس وغيره هؤلاء قوم صالحون كانون فى قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثليهم فعبدوهم وهذا مشهور فى كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخارى وغيره وهذه أبطلها النبى وحسم مادتها وسد ذريعتها حتى لعن من إتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها وإن كان المصلى فيها لا يستشفع بهم ونهى عن الصلاة الى القبور وأرسل على بن أبى طالب فأمره أن لا يدع قبرا مشرفا الا سواه ولا تمثالا إلا طمسه ومحاه ولعن المصورين وعن أبى الهياج الأسدى قال لى على بن أبى طالب لأبعثك على ما بعثنى رسول الله ألا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته وفى لفظ ولا صورة إلا طمستها أخرجه مسلم [1]

لطائف لغوية

1-قال تعالى {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ }المدثر38 أن الكسب هو الفعل الذى يعود على فاعله بنفع أو ضر كما قال تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ }البقرة286 فبين سبحانه أن كسب النفس لها أوعليها و الناس يقولون فلان كسب مالا أو حمدا أو شرفا كما أنه ينتفع بذلك [2]

قال تعالى { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44} وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45} وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46} حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47} فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ{48}المدثر 42-48 يوم الدين يوم يدين العباد بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 149-152

[2] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 387

[3] مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 262

سورة المدثر 49-53

{ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ{49} كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50} فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51} بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً{52} كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ{53}

ذم المعرضين عن سماع الذكر

وقال تعالى {وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ }المائدة83 وبهذا السماع أمر الله تعالى كما قال تعالى {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }الأعراف204 وعلى أهله أثنى كما فى قوله تعالى { فَبَشِّرْ عِبَادِ{17} الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ{18} الزمر 17-18 وقال فى الآية الأخرى {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ }المؤمنون68 فالقول الذى أمروا بتدبره هو القول الذى أمروا باستماعه وقد قال تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا }محمد24 وقال تعالى {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ }ص29 [1]

قال تعالى{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ}مريم58 الى قوله {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً }مريم58 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً }الإسراء107 الى قوله { وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً }الإسراء109 وقال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }الأنفال2 وقال تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ }الزمر23 الآية وكما مدح المقبلين على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنه فى مثل قوله {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً }لقمان6 الى قوله {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }لقمان7 وقال تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً }الفرقان73 وقال تعالى { فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ{49} كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50} فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51}المدثر 49-51 وقال تعالى{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ {22} وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ {23}الأنفال22 -23 وقال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 557

تَغْلِبُونَ }فصلت26 ومثل هذا كثير فى القرآن وهذا كان سماع سلف الامة واكابر مشائخها وائمتها كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشائخ كابراهيم بن ادهم والفضيل بن عياض وابى سليمان الدارانى ومعروف الكرخى ويوسف بن اسباط وحذيفة المرعشى وامثال هؤلاء وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لابى موسى الأشعرى يا ابا موسى ذكرنا ربنا فيقرأوهم يسمعون ويبكون وكان اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اذا اجتمعوا امروا واحدا منهم ان يقرأ القرآن والباقى يستمعون وقد ثبت فى الصحيح ان النبى مر بأبى موسى الاشعرى وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال لقد اوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود وقال مررت بك البارحة وانت تقرأ فجعلت استمع لقراءتك فقال لو علمت انك تسمع لحبرته لك تحبرا اى لحسنته لك تحسنيا وقال صلى الله عليه وسلم زينوا القرآن من صاحب باصواتكم وقال الله اشد اذنا الى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينةالى قينته اذنا اى استماعا كقوله {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ }الانشقاق2 اى استمعت وقال صلى الله عليه وسلم ما اذن الله لشئ ما اذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به وقال ليس منا من لم يتغن بالقرآن ولهذا السماع من المواجيد العظيمة والأذواق الكريمة ومزيد المعارف والاحوال الجسيمة مالا يتسع له خطاب ولايحويه كتاب كما ان فى تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والايمان مالا يحيط به بيان [1]

السماع الايمانى

وكما مدح المقبلين على السماع الايماني القرآني النبوي الديني الشرعي الذي هو سماع النبيين وسماع العالمين وسماع العارفين وسماع المؤمنين فقد ذم المعرضين عنه في مثل قوله{ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ{49} كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50} فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51}المدثر 49-51[2]

سماع القرآن له آثار إيمانية

وقال سبحانه وتعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ }الزمر23 وقال سبحانه وتعالى {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ }الزمر18 وهذا كثير فى القرآن وكما اثنى سبحانه وتعالى على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنه كما قال تعالى {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ{49} كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50} فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51} بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً{52} كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ{53} سورة المدثر 49 -53 و قال {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ{22} وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ{23}الأنفال22-23 وقال سبحانه وتعالى {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }لقمان7 وهذا كثير فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع المسلمين يمدحون من يقبل على هذا السماع ويحبه ويرغب فيه ويذمون من يعرض عنه ويبغضه

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 79-81

[2] أمراض القلوب ج: 1 ص: 75

ولهذا شرع الله للمسلمين فى صلاتهم ولطسهم شرع سماع المغرب والعشاء الآخر وأعظم سماع فى الصلوات سماع الفجر الذى قال الله فيه وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا وقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه يمدح النبى صلى الله عليه وسلم وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع وهو مستحب لهم خارج الصلوات وروى عن النبى أنه خرج على أهل الصفة وفيهم واحد يقرأ وهم يستمعون فجلس معهم وكان أصحاب رسول الله إذا اجتمعوا أمروا واحد منهم يقرأ والباقون يستمعون وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون ومر النبى بأبى موسى وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال لقد أوتى هذا مزمار من مزامير داود وقال يا أبا موسى لقد مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت استمع لقراءتك فقال لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحبرته لك تحبيرا أى حسنته لك تحسينا وقال النبى ليس منا من لم يتغن بالقرآن زينوا القرآن بأصواتكم وقال لله أشد أذنا للرجل حسن الصوت من صاحب القينة إلى قينته وقوله ماأذن الله إذنا اى سمع سمعا ومنه قوله {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ }الانشقاق2 أى سمعت والآثار فى هذا كثيرة وهذا سماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية والأحوال الزكية يطول شرحها ووصفها وله فى الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ودموع العين واقشعروا الجلد وقد ذكر الله هذه الثلاثة فى القرآن وكانت موجودة فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أثنى عليهم فى القرآن[1]

الفرق فى السمع من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره

ومن هنا يظهر الفرق فى السمع والبصر من الإيمان وآثاره والكفر وآثاره والفرق بين المؤمن البر وبين الكافر والفاجر فإن المؤمنين يسمعون اخبار أهل الإيمان فيشهدون رؤيتهم على وجه العلم والمعرفة والمحبة والتعظيم لهم ولاخبارهم وآثارهم كرؤية الصحابة النبى وسمعهم لما بلغه عن الله والكافر والمنافق يسمع ويرى على وجه البغض والجهل كما قال تعالى {وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ }القلم51 وقال { فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ }محمد20 وقال { مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ }هود20 وقال { فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ }المائدة71 وقال تعالى فى حق المؤمنين {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً }الفرقان73 وقال فى حق الكفار {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ }المدثر49 والآيات فى هذا كثيرة جدا [2]

آياته سبحانه توجب شيئين

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 588

[2] مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 342

فآياته سبحانه توجب شيئين أحدهما فهمها وتدبرها ليعلم ما تضمنته والثانى عبادته والخضوع له اذا سمعت فتلاوته اياها وسماعها يوجب هذا وهذا فلو سمعها السامع ولم يفهمها كان مذموما ولو فهمها ولم يعمل بما فيها كان مذموما بل لابد لكل أحد عند سماعها من فهمها والعمل بها كما أنه لابد لكل أحد من استماعها فالمعرض عن استماعها كافر والذى لا يفهم ما أمر به فيها كافر والذى يعلم ما أمر به فلا يقر بوجوبه ويفعله كافر وهو سبحانه يذم الكفار بهذا وهذا وهذا كقوله {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ{49} كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50} فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51} بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً{52} كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ{53} سورة المدثر 49 -53 وقوله {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ }فصلت26 وقوله {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {3} بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ{4} فصلت3 -4 ونظائره كثيرة وقال فيمن لم يفهمها ويتدبرها {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ }الأنفال23 فذمهم على أنهم لا يفهمون ولو فهموا لم يعملوا بعلمهم وقال تعالى { وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ{21} إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ{22} وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ{23} الأنفال21-23 [1]

أمر بالتذكير التام النافع

أن الأمر بالتذكير أمر بالتذكير التام النافع كما هو أمر بالتذكير المشترك و هذا التام النافع يخص به المؤمنين المنتفعين فهم إذا آمنوا ذكرهم بما أنزل و كلما أنزل شيء من القرآن ذكرهم به و يذكرهم بمعانيه و يذكرهم بما نزل قبل ذلك بخلاف الذين قال فيهم {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ{49} كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50} فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51} بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً{52} كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ{53} سورة المدثر 49 -53

فإن هؤلاء لا يذكرهم كما يذكر المؤمنين إذا كانت الحجة قد قامت عليهم و هم معرضون عن التذكرة لا يسمعون و لهذا قال { عَبَسَ وَتَوَلَّى{1} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{2} وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4} أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى{5} فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى{6} وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى{7} وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{8} وَهُوَ يَخْشَى{9} فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى{10} عبس 1-10 فأمره أن يقبل على من جاءه يطلب أن يتزكى وأن يتذكر و قال { سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{10} الاعلى 10 إلى قوله{ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14}الاعلى 11 فذكر التذكر و اللتزكي كما ذكرهما هناك و أمره أن يقبل على من أقبل عليه دون من أعرض عنه فإن هذا ينتفع بالذكرى دون ذاك فيكون مأمورا أن يذكر المنتفعين بالذكرى تذكيرا يخصهم به غير التبليغ العام الذي تقوم به الحجة[2]

علمنا مبنى على الكتاب والسنة

[1] مجموع الفتاوى ج: 23 ص: 148-149

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 163-164

وقال الجنيد علمنا هذا مبنى على الكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الشأن وكثير من اهل البدع ينفر ممن يذكر الشرع أو القرآن أو يكون معه كتاب أو يكتب وذلك لأنهم إستشعروا أن هذا الجنس فيه ما يخالف طريقهم فصارت شياطينهم تهربهم من هذا كما يهرب اليهودى والنصرانى إبنه أن يسمع كلام المسلمين حتى لا يتغير إعتقاده فى دينه وكما كان قوم نوح يجعلون أصابعهم فى آذانهم ويستغشون ثيابهم لئلا يسمعوا كلامه ولا يروه وقال الله تعالى عن المشركين {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ }فصلت26 وقال تعالى {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ{49} كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50} فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51} بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً{52} كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ{53} سورة المدثر 49 - 53 وهم من أرغب الناس فى السماع البدعى سماع المعازف ومن أزهدهم فى السماع الشرعى سماع آيات الله تعالى وكان مما زين لهم طريقهم أن وجدوا كثيرا من المشتغلين بالعلم والكتب معرضين عن عبادة الله تعالى وسلوك سبيله أما إشتغالا بالدنيا وإما بالمعاصى وإما جهلا وتكذيبا بما يحصل لأهل التأله والعبادة فصار وجود هؤلاء مما ينفرهم وصار بين الفريقين نوع تباغض يشبه

من بعض الوجوه ما بين أهل الملتين هؤلاء يقولون ليس هؤلاء على شىء وهؤلاء يقولون ليس هؤلاء على شىء وقد يظنون أنهم يحصل لهم بطريقهم أعظم مما يحصل فى الكتب فمنهم من يظن أنه يلقن القرآن بلا تلقين ويحكون أن شخصا حصل له ذلك وهذا كذب نعم قد يكون سمع آيات الله فلما صفى نفسه تذكرها فتلاها فإن الرياضة تصقل النفس فيذكر أشياء كان نسيها ويقول بعضهم أو يحكى أن بعضهم قال اخذوا علمهم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت وهذا يقع لكن منهم من يظن إنما يلقى إليه من خطاب أو خاطر هو من الله تعالى بلا واسطة وقد يكون من الشيطان وليس عندهم فرقان يفرق بين الرحمانى والشيطانى فإن الفرق الذى لا يخطىء هو القرآن والسنة فما وافق الكتاب والسنة فهو حق وما خالف ذلك فهو خطأ وقد قال تعالى {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ {36} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ{37} حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ{38}الزخرف36-38 وذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله قال تعالى {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاه}الأنبياء50

[1]

الله سبحانه شرع للأمة ما أغناهم به عما لم يشرعه

فإن الله سبحانه شرع للأمة ما أغناهم به عما لم يشرعه حيث أكمل الدين وأتم عليهم النعمة ورضى لهم الإسلام دينا وهو سماع القرآن الذي شرعه لهم في الصلاة التي هي عماد دينهم وفي غير الصلاة مجتمعين ومنفردين حتى كان أصحاب محمد إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم ان يقرأ والباقون يسمعون وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون وقال النبي ص ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول ألم حرف ولكن أقول ألف حرف ولام حرف وميم حرف [2]

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 412

[2] الاستقامة ج: 1 ص: 303

ان الله في كتابه إنما حمد استماع القرآن وذم المعرضين عن استماعه وجعلهم أهل الكفر والجهل الصم البكم كما قال تعالى في ذم المعرضين عنه {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ{49} كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50} فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51} بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً{52} كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ{53} سورة المدثر 49 -53 [1]

لطائف لغوية

1-قال تعالى {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ{49} كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50} فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51} سورة المدثر 49 -51

ومن التنازع الموجود عن المفسرين ما يكون اللفظ فيه محتملا للأمرين اما لكونه مشتركا فى اللفظ كلفظ { قَسْوَرَةٍ }المدثر51 الذى يراد به الرامى ويراد به الأسد[2]

[1] الاستقامة ج: 1 ص: 229

[2] مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 355

سورة المدثر 54-56

{ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ{54} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56}

العبد له مشيئة وقدرة

فمذهب سلف الأمة ان الله خالق كل شيءو ربه و مليكه و أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و أنه على كل شيء قدير و أنه هو الذي خلق العبد هلوعا إذا مسه الشر جزوعا و إذا مسه الخير منوعا و نحو ذلك أن العبد فاعل حقيقة و له مشيئة و قدرة قال تعالى {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ {28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير28 -29 و قال تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30}الإنسان29-30 و قال تعالى { كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ{54} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55}وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56} المدثر 54-56 وهذا الموضع إضطرب فيه الخائضون فى القدر فقالت المعتزلة و نحوهم من النفاة الكفر و الفسوق و العصيان أفعال قبيحة و الله منزه عن فعل القبيح بإتفاق المسلمين فلا تكون فعلا له وقال من رد عليهم من المائلين إلى الجبر بل هي فعله و ليست أفعالا للعباد بل هي كسب للعبد و قالوا إن قدرة العبد لاتأثير لها فى حدوث مقدورها و لا فى صفة من صفاتها و أن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارنا لها فيكون الفعل خلقا من الله إبداعا و إحداثا و كسبا ممن العبد لوقوعه مقارنا لقدرته و قالوا إن العبد ليس محدثا لأ فعاله و لا موجدا لها و مع هذا فقد يقولون إنا لانقول بالجبر المحض بل نثبت قدرة حادثة و الجبري المحض الذي لا يثبت للعبد قدرة وأخذوا يفرقون بين الكسب الذي أثبتوه و بين الخلق فقالوا الكسب عبارة عن إقتران المقدور بالقدرة الحادثة و الخلق هو المقدور بالقدرة القديمة و قالوا أيضا الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه و الخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه فقال لهم الناس هذا لا يوجب فرقا بين كون العبد كسب و بين كونه فعل و أوجد و أحدث و صنع و عمل و نحو ذلك فإن فعله و إحداثه و عمله و صنعه هو أيضا مقدور بالقدرة الحادثة و هو قائم فى محل القدرة الحادثة و أيضا فهذا فرق لا حقيقة له فأن كون المقدور فى محل القدرة أو خارجا عن محلها لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه و هو مبني على أصلين أن الله لايقدر على فعل يقوم بنفسه و أن خلقه للعالم هو نفس العالم و أكثر العقلاء من المسلمين و غيرهم على خلاف ذلك و الثاني أن قدرة العبد لا يكون مقدورها إلا في محل و جودها و لا يكون شيء من مقدورها خارجا عن محلها و فى ذلك نزاع طويل ليس هذا موضعه و أيضا فإذا فسر التأثير بمجرد الإقتران فلا فرق بين أن يكون الفارق في المحل أو خارجا عن المحل و أيضا قال لهم المنازعون من المستقر فى فطر الناس أن من فعل العدل فهو عادل و من فعل الظلم فهو ظالم و من فعل الكذب فهو كاذب فإذا لم يكن العبد فاعلا لكذبه و ظلمه و عدله بل الله فاعل ذلك لزم أن يكون هو المتصف بالكذب و الظلم قالوا و هذا كما قلتم أنتم و سائر الصفاتية من المستقر فى فطر الناس أن من قام به العلم فهو

عالم ومن قامت به القدرة فهو قادر و من قامت به الحركة فهو متحرك و من قام به التكلم فهو متكلم و من قامت به الإرادة فهو مريد و قلتم إذا كان الكلام مخلوقا كان كلاما للمحل الذي خلقه فيه كسائر الصفات فهذه القاعدة المطردة فيمن قامت به الصفات نظيرها أيضا من فعل الأفعال وقالوا أيضا القرآن مملوء بذكر إضافة هذه الأفعال إلى العباد كقوله تعالى {جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }الواقعة24 و قوله { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ }فصلت40 و قوله {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ }التوبة105 و قوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ }البقرة277 و أمثال ذلك و قالوا أيضا أن الشرع و العقل متفقان على أن العبد يحمد و يذم على فعله و يكون حسنة له أو سيئة فلو لم يكن الافعل غيره لكان ذلك الغير هو المحمود المذموم عليها وفى المسألة كلام ليس هذا موضع بسطه لكن ننبه على نكت نافعة فى هذا الموضع المشكل فتقول قول القائل هذا فعل هذا و فعل هذا لفظ فيه إجمال فإنه تارة يراد بالفعل نفس الفعل و تارة يراد به مسمى المصدر فيقول فعلت هذا إفعله فعلا و عملت هذا إعمله عملا فإذا أريد بالعمل نفس الفعل الذي هو مسمى المصدر كصلاة الإنسان و صيامه و نحو ذلك فالعمل هنا هو المعمول و قد إتحد هنا مسمى المصدر و الفعل و إذا أريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب و بناء الدار و نحو ذلك فالعمل هنا غير المعمول قال تعالى {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ }سبأ13 فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن و من هذا الباب قوله تعالى {وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ }الصافات96 فإنه فى أصح القولين ما بمعنى الذي و المراد به ما تنحتونه من الأصنام كما قال تعالى { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{95} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{96} الصافات95-96 أي و الله خلقكم و خلق الأصنام التى تنحتونها و منه حديث حذيفة عن النبى صلى الله عليه و سلم أن الله خالق كل صانع و صنعته لكن قد يستدل بالآية على أن الله خلق أفعال العباد من و جه آخر فيقال إذا كان خالقا لما يعملونه من المنحوتات لزم أن يكون هو الخالق للتأليف الذي أحدثوه فيها فإنها إنما صارت أوثانا بذلك التأليف و إلا فهي بدون ذلك ليست معمولة لهم و إذا كان خالقا للتأليف كان خالقا لأفعالهم والمقصود أن لفظ الفعل و العمل و الصنع أنواع و ذلك كلفظ البناء و الخياطة و النجارة تقع على نفس مسمى المصدر و على المفعول و كذلك لفظ التلاوة و القراءة و الكلام و القول يقع على نفس مسمى المصدر و على ما يحصل بذلك من نفس القول و الكلام فيراد بالتلاوة و القراءة نفس القرآن المقروء المتلو كما يراد بها مسمى المصدر والمقصود هنا أن القائل إذا قال هذه التصرفات فعل الله أو فعل العبد فإن أراد بذلك أنها فعل الله بمعنى المصدر فهذا باطل بإتفاق المسلمين و بصريح العقل و لكن من قال هي فعل الله و أراد به أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات فهذا حق ثم من هؤلاء من قال أنه ليس لله فعل يقوم به فلا فرق عنده بين فعله و مفعوله و خلقه و مخلوقه وأما الجمهور الذين يفرقون بين هذا و هذا فيقولون هذه مخلوقه لله مفعوله لله ليست هي نفس فعله و أما العبد فهي فعله القائم به و هي أيضا مفعوله له إذا أريد بالفعل المفعول فمن لم يفرق في حق الرب تعالى بين الفعل و المفعول إذا قال أنها فعل الله تعالى و ليس لمسمى فعل الله عنده معنيان و حينئذ فلا تكون فعلا للعبد ولا مفعوله له بطريق الأولى و بعض هؤلاء قال هي فعل للرب و للعبد فأثبت مفعولا بين فاعلين وأكثر المعتزلة يوافقون هؤلاء على أن فعل الرب تعالى لا يكون إلا بمعنى مفعوله مع أنهم يفرقون فى العبد بين الفعل و المفعول فلهذا عظم النزاع و أشكلت المسألة على الطائفتين و حاروا فيها وأما من قال خلق الرب تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته قال إن أفعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات ومفعولة للرب كسائر المفعولات ولم يقل أنها نفس فعل الرب وخلقه بل قال أنها نفس فعل العبد وعلى هذا تزول الشبهة فأنه يقال الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح يتصف بها من كانت فعلا له كما يفعلها العبد وتقوم به

ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له إذا كان قد جعلها صفة لغيره كما أنه سبحانه لا يتصف بما خلقه فى غيره من الطعوم والألوان والروائح والأشكال والمقادير والحركات وغير ذلك فإذا كان قد خلق لون الإنسان لم يكن هو المتلون به وإذا خلق رائحة منتنة أ و طعما مرا أ و صورة قبيحة ونحو ذلك مما هو مكروه مذموم مستقبح لم يكن هو متصفا بهذه المخلوقات القبيحة المذمومة المكروهة والأفعال القبيحة ومعنى قبحها كونها ضارة لفاعلها وسببا لذمه وعقابه وجالبة لألمه وعذابه وهذا أمر يعود على الفاعل الذي قامت به لا على الخالق الذي خلقها فعلا لغيره ثم على قول الجمهور الذين يقولون له حكمة فيما خلقه فى العالم مما هو مستقبح وضار ومؤذ يقولون له فيما خلقه من هذه الأفعال القبيحة الضارة لفاعلها حكمة عظيمة كما له حكمة عظيمة فيما خلقه من الأمراض والغموم ومن يقول لا تعلل أفعاله لا يعلل لا هذا ولا هذا يوضح ذلك أن الله تعالى إذا خلق في الإنسان عمى ومرضا وجوعا وعطشا ووصبا ونصبا ونحو ذلك كان العبد هو المريض الجائع العطشان المتألم فضرر هذه المخلوقات وما فيها من الأذى والكراهة عاد إليه ولا يعود إلى الله تعالى شيء من ذلك فكذلك ما خلق فيه من كذب وظلم وكفر ونحو ذلك هي أمور ضارة مكروهة مؤذية وهذا معنى كونها سيئات وقبائح إي أنها تسوء صاحبا وتضره وقد تسوء أيضا غيره وتضره كما أن مرضه ونتن ريحه ونحو ذلك قد يسوء غيره ويضره يبين ذلك أن القدرية سلموا أن الله قد يخلق فى العبد كفرا وفسوقا على سبيل الجزاء كما فى قوله تعالى {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ }الأنعام110 وقوله {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً }البقرة10 وقوله { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ }الصف5 ثم أنه من المعلوم أن هذه المخلوقات تكون فعلا للعبد وكسبا له يجزى عليها ويستحق الذم عليها والعقاب وهي مخلوقة لله تعالى فالقول عند أهل الإثبات فيما يخلقه من أعمال العباد إبتداء كالقول فيما يخلقه جزاء من هذا الوجه وإن إفترقا من وجه آخر وهم لا يمكنهم أن يفرقوا بينهما بفرق يعود إلى كون هذا فعلا لله دون هذا وهذا فعلا للعبد دون هذا ولكن يقولون أن هذا يحسن من الله تعالى لكونه جزاء للعبد وذلك لايحسن منه لكونه إبتداء للعبد بما يضره وهم يقولون لايحسن منه أن يضرالحيوان إلا بجرم سابق أ و عوض لاحق وأما أهل الإثبات للقدر فمن لم يعلل منهم لا يفرق بين مخلوق ومخلوق وأما القائلون بالحكمة وهم الجمهور فيقولون لله تعالى فيما يخلقه من أذى الحيوان حكم عظيمة كما له حكم في غير هذا ونحن لا نحصر حكمته فى الثواب والعوض فإن هذا قياس لله تعالى على الواحد من الناس وتمثيل لحكمة الله وعدله بحكمة الواحد من الناس وعدله و المعتزلة مشبهة في الأفعال معطلة فى الصفات ومن أصولهم الفاسدة أنهم يصفون الله بما يخلقه فى العالم إذ ليس عندهم صفة لله قائمة به ولا فعل قائم به فيسمونه به ويصفونه بما يخلقه فى العالم مثل قولهم هو متكلم بكلام يخلقه فى غيره ومريد بإرادة يحدثها لا فى محل وقولهم أن رضاه وغضبه وحبه وبغضه هو نفس المخلوق الذي يخلقه من الثواب والعقاب وقولهم أنه لو كان خالقا لظلم العبد وكذبه لكان هو الظالم الكاذب وأمثال ذلك من الأقوال التى إذا تدبرها العاقل علم فسادها بالضرورة ولهذا إشتد نكير السلف والأئمة عليهم لا سيما لما أظهروا القول بأن القرآن مخلوق وعلم السلف أن هذا فى الحقيقة هو إنكار لكلام الله تعالى وأنه لو كان كلامه هو مايخلقه للزم أن يكون كل كلام مخلوق كلاما له فيكون إنطاقه للجلود يوم القيامة وإنطاقه للجبال والحصى بالتسبيح وشهادة الأيدى والأرجل ونحو ذلك كلاما له وإذا كان خالقا لكل شيء كان كل كلام موجود كلامه وهذا قول الحلولية من الجهمية كصاحب الفصوص وأمثاله ولهذا يقولون وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه وقد علم بصريح المعقول أن الله تعالى إذا خلق صفة فى محل كانت صفة لذلك المحل فإذا خلق حركة فى محل كان ذلك المحل هو المتحرك بها إذا خلق لونا أو ريحا فى جسم كان هو المتلون المتروح بذلك وإذا خلق علما أ و قدرة أو حياة في

محل كان ذلك المحل هو العالم القادر الحي فكذلك إذا خلق إرادة وحبا وبغضا في محل كان هو المريد المحب المبغض وإذا خلق فعلا لعبد كان العبد هو الفاعل فإذا خلق له كذبا وظلما وكفرا كان العبد هو الكاذب الظالم الكافر وإن خلق له صلاة وصوما وحجا كان العبد هو المصلي الصائم الحاج والله تعالى لا يوصف بشيء من مخلوقاته بل صفاته قائمة بذاته وهذا مطرد على أصول السلف وجمهور المسلمين من أهل السنة وغيرهم ويقولون أن خلق الله للسموات والأرض ليس هو نفس السموات والأرض بل الخلق غير المخلوق لا سيما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة الذين وافقوهم على إثبات صفات الله وأفعاله ومن وافقهم من الجهمية والقدرية نقضوا هذا الأصل على من لم يقل أن الخلق غير المخلوق كالأشعرى ومن وافقه فقالوا إذ قلتم أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل دون غيره كما ذكرتم في الحركة والعلم والقدرة وسائر الأعراض إنتقض ذلك عليكم بالعدل والإحسان وغيرهما من أفعال الله تعالى فإنه يسمى عادلا بعدل خلقه فى غيره محسنا بإحسان خلقه فى غيره فكذا يسمى متكلما بكلام خلقه فى غيره والجمهور من أهل السنة وغيرهم يجيبون بإلتزام هذا الأصل ويقولون إنما كان عادلا بالعدل الذي قام بنفسه ومحسنا بالإحسان الذي قام بنفسه وأما المخلوق الذي حصل للعبد فه و أثر ذلك كما أنه رحمن رحيم بالرحمة التى هي صفته وأما ما يخلقه من الرحمة فهو أثر الرحمة وإسم الصفة يقع تارة على الصفة التى هي مسمى المصدر ويقع تارة على متعلقها الذي هو مسمى المفعول كلفظ الخلق يقع تارة على الفعل وعلى المخلوق أخرى والرحمة تقع على هذا وهذا وكذلك الأمر يقع على أمره الذي هو مصدر أمر يأمر أمرا يقع على المفعول تارة كقوله تعالى {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً }الأحزاب38 وكذلك لفظ العلم يقع على المعلوم و القدرة تقع على المقدور ونظائر هذا متعددة وقد إستدل الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة في جملة ما إستدلوا على أن كلام الله غير مخلوق بقوله عليه السلام أعوذ بكلمات الله التامات ونحو ذلك وقالوا الإستعاذة لاتحصل بالمخلوق ونظير هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك [1]

أسماء القرآن

أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعظة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكرى تذكرة {وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ }الحاقة48 { إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ{54} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} المدثر54-55 [2]

إثبات مشيئة العبد وأنها لا تكون إلا بمشيئة الرب

قوله تعالى { وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير29 أخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيئته و مع هذا فلا يوجب ذلك وجود الفعل منهم إذ أكثر ما فيه أنه جعلهم شائين ولا يقع الفعل منهم حتى يشاؤه منهم كما فى قو له تعالى{ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 118-127

[2] مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 2

اللَّهُ {56} المدثر55-56 و مع هذا فلابد من إرادة الفعل منهم حتى يريد من نفسه إعانتهم وتوفيقهم فهنا أربع إرادات إرادة البيان و إرادة المشيئة و إرادة الفعل و إرادة الإعانة و الله أعلم[1]

فجمهور أهل السنة من السلف والخلف يقولون إن العبد له قدرة وإرادة وفعل وهو فاعل حقيقة والله خالق ذلك كله كما هو خالق كل شيء كما دل على ذلك الكتاب والسنة قال تعالى عن إبراهيم {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ }البقرة128 وقال تعالى عن إبراهيم {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي }إبراهيم40 وقال تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا }السجدة24وقال تعالى {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ }الأنبياء73 وقال { إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{21}المعارج 19- 21 فأخبر أن الله يجعل المسلم مسلما والمقيم الصلاة مقيم للصلاة والإمام الهادي إماما هاديا وقال عن المسيح صلى الله عليه وسلم {وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ }مريم31 إلى قوله {وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً }مريم32 فبين أن الله هو الذي جعله برا بوالدته ولم يجعله جبارا شقيا وهذا صريح قول أهل السنة في أن الله عز وجل خالق أفعال العباد وقال تعالى عن فرعون وقومه {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ }القصص41 وقد قال تعالى { لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير 28- 29 وقال تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30}الإنسان 29 -30 وقوله { كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ{54} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} المدثر 54- 55 فأثبت مشيئة العبد وقوله كلا إلا بمشيئة الرب تعالى وهذا صريح قول أهل السنة في إثبات مشيئة العبد وأنها لا تكون إلا بمشيئة الرب وقد أخبر أن العباد يفعلون ويصنعون ويعملون ويؤمنون ويكفرون ويتقون ويفسقون ويصدقون ويكذبون ونحو ذلك في مواضع كثير وأخبر أن لهم استطاعة وقوة في غير موضع وأئمة أهل السنة وجمهورهم يقولون إن الله خالق هذا كله والخلق عندهم ليس هو المخلوق فيفرقون بين كون أفعال العباد مخلوقة مفعولة للرب وبين أن يكون نفس فعله الذي هو مصدر فعل يفعل فعلا فإنها فعل للعبد بمعنى المصدر وليست فعلا للرب تعالى بهذا الاعتبار بل هي مفعولة له والرب تعالى لا يتصف بمفعولاته ولكن هذه الشناعات لزمت من لا يفرق بين فعل الرب ومفعوله ويقول مع ذلك إن أفعال العباد فعل لله كما يقول ذلك الجهم بن صفوان وموافقوه والأشعري وأتباعه ومن وافقهم من أتباع الأئمة ولهذا ضاق بهؤلاء البحث في هذا الموضع كما قد بسط في موضعه [2]

العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله

ومما إتفق عليه سلف الأمة و أئمتها مع إيمانهم بالقضاء و القدر و أن الله خالق كل شيء و أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و أنه يضل من يشاء و يهدي من يشاء أن العباد لهم مشيئة و قدرة يفعلون بمشيئتهم و قدرتهم ما أقدرهم الله عليه مع قولهم أن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله كما قال الله تعالى { كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ{54} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 81 و دقائق التفسير ج: 3 ص: 27

[2] منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 113

وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56} المدثر54-56 و قال تعالى { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30} الانسان 29-30 و قال { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27} لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير 27-29 و القرآن قد أخبر بأن العباد يؤمنون و يكفرون و يفعلون و يعملون و يكسبون و يطيعون و يعصون و يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يحجون و يعتمرون و يقتلون و يزنون و يسرقون و يصدقون و يكذبون و يأكلون و يشربون و يقاتلون و يحاربون فلم يكن من السلف و الأئمة من يقول أن العبد ليس بفاعل و لا مختار و لا مريد و لا قادر و لا قال أحد منهم أنه فاعل مجازا بل من تكلم منهم بلفظ الحقيقة و المجاز متفقون على أن العبد فاعل حقيقة و الله تعالى خالق ذاته و صفاته و أفعاله و أول من ظهر عنه إنكار ذلك هو الجهم بن صفوان و أتباعه فحكى عنهم أنهم قالوا أن العبد مجبور و أنه لافعل له أصلا و ليس بقادر أصلا و كان الجهم غاليا فى تعطيل الصفات فكان ينفي أن يسمى الله تعالى بإسم يسمى به العبد فلا يسمى شيئا و لا حيا و لا عالما و لا سميعا و لا بصيرا إلا على و جه المجاز و حكي عنه أنه كان يسمى الله تعالى قادرا لأن العبد عنده ليس بقادر فلا تشبيه بهذا الإسم على قوله و كان هو و أتباعه ينكرون أن يكون لله حكمة فى خلقه و أمره و أن يكون له رحمة و يقولون إنما فعل بمحض مشيئة لا رحمة معها و حكى عنه أنه كان ينكر أن يكون الله أرحم الراحمين و أنه كان يخرج الى الجذمى فينظر إليهم و يقول أرحم الراحمين يفعل مثل هذا بهؤلاء و كان يقول العباد مجبورون على أفعالهم ليس لهم فعل و لا إختيار وكان ظهور جهم و مقالته فى تعطيل الصفات و فى الجبر و الارجاء في أواخر دولة بني أمية بعد حدوث القدرية و المعتزلة و غيرهم فإن القدرية حدثوا قبل ذلك فى أواخر عصر الصحابة فلما حدثت مقالته المقابلة لمقالة القدرية أنكرها السلف و الأئمة كما أنكروا قول القدرية من المعتزلة و غيرهم و بدعوا الطائفتين حتى فى لفظ الجبر أنكروا على من قال جبر و على من قال لم يجبر والآثار بذلك معروفة عن الأوزاعي و سفيان الثوري و عبد الرحمن بن مهدي و أحمد بن حنبل و غيرهم من سلف الأمة و أئمتها كما ذكر طرفا من ذلك أبو بكر الخلال فى كتاب السنة هو و غيره ممن يجمع أقوال السلف و قال الأوزاعي و الزبيدي و غيرهما ليس فى الكتاب و السنة لفظ جبر و إنما فى السنة لفظ جبل كما فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لأشبح عبد القيس لما قدم عليه و فد عبد القيس من البحرين فقالوا يارسول الله بيننا و بينك هذا الحي من كفار مضر و إنا لا نصل إليك إلا فى شهر حرام فمرنا بأمر فصل نعمل به و نأمر به من و راءنا فقال آمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و أن تؤدوا خمس ما غنمتم ونهاهم عن الإنتباذ فى الأوعية التى يسرع إليها السكر حتى قد يشرب الرجل و لا يدري أنه شرب مسكرا بخلاف الظروف التى توكأ فانها إذا إشتد الشراب إنشقت و نهي عن الدباء و هو القرع و الحنتم و هو ما يصنع من المدر كالجرار و المزفت و هي الظروف المزفتة و النقير و هو الخشب المنقور ثم قد قيل أن النبى صلى الله عليه و سلم أباح ذلك بعد هذا النهي و لهذا تنازع العلماء فى هذا النهي هل هو منسوخ أم لا على قولين مشهورين للعلماء هما روايتان عند أحمد والقول بالنسخ مذهب أبى حنيفة و الشافعي و القول بأن هذا كان لم ينسخ مذهب مالك لكن مالك لا ينهي إلا عن صنفين فإنه ثبت فى صحيح البخاري أنه حرم ذلك الصنفين و أباح الآخرين بعد النهي و أما مسلم فروى فى صحيحه النسخ فى الجميع فلهذا إختلف قول أحمد لأن الأحاديث بالنهي متواترة و حديث النسخ ليس مثلها فلهذا صار للناس فيها ثلاثة أقوال و هؤلاء و فد عبد القيس كانوا بالبحرين أسلموا طوعا كما أسلم أهل المدينة و أول جمعة جمعت فى الإسلام فى قرية عندهم من قرى البحرين و المقصود أن النبى صلى الله عليه و سلم قال لأشج عبد القيس

إن فيك لخلقين يحبهما الله الحلم و الإناءة فقال أخلقين تخلقت بهما أما خلقين جبلت عليهما فقال بل خلقين جبلت عليهما فقال الحمد لله الذي جبلنى على ما يحب فقال الأوزاعي و الزبيدي و غيرهما من السلف لفظ الجبل جاءت به السنة فيقال جبل الله فلانا على كذا و أما لفظ الجبر فلم يرد و أنكر الأوزاعي و الزبيدي و الثوري و أحمد بن حنبل و غيرهم لفظ الجبر فى النفي و الإثبات و ذلك لأن لفظ الجبر مجمل فإنه يقال جبر الأب إبنته على النكاح و جبر الحاكم الرجل على بيع ماله لوفاء دينه و معنى ذلك إكرهه ليس معناه أنه جعله مريدا لذلك مختارا محبا له راضيا به قالوا و من قال إن الله تعالى جبر العباد بهذا المعنى فهو مبطل فإن الله أعلى و أجل قدرا من أن يجبر أحدا و إنما يجبر غيره العاجز عن أن يجعله مريدا للفعل مختارا له محبا له راضيا به و الله سبحانه قادر على ذلك فهو الذي جعل المريد للفعل المحب له الراضي به مريدا له محبا له راضيا به فكيف يقال أجبره و أكرهه كما يجبر المخلوق المخلوق مثل ما يجبر السلطان و الحاكم و الأب و غيرهم من يجبرونه إما بحق و إما بباطل و إجبارهم هو إكراههم لغيرهم على الفعل و الإكراه قد يكون إكراها بحق و قد يكو ن إكراها بباطل فالأول كإكراه من إمتنع من الو جبات على فعلها مثل إكراه الكافر الحربي على الإسلام أو أداء الجزية عن يد وهم صاغرون و إكراه المرتد على العود إلى الإسلام و إكراه من أسلم على إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و صوم رمضان و حج البيت و على قضاء الديون التى يقدر على قضائها و على أداء الأمانة التى يقدر على أدائها و إعطاء النفقة الو اجبة عليه التى يقدر على إعطائها و أما الإكراه بغير حق فمثل إكراه الإنسان على الكفر و المعاصي و هذا الإجبار الذي هو الإكراه يفعله العباد بعضهم مع بعض لأنهم لا يقدرون على إحداث الإرادة و الإختيار فى قلوبهم و على جعلهم فاعلين لأفعالهم و الله تعالى قادر على إحداث إرادة للعبد و لإختياره و جعله فاعلا بقدرته و مشيئته فهو أعلا و أقدر من أن يجبر غيره و يكرهه على أمر شاءه منه بل إذا شاء جعله فاعلا له بمشيئته كما أنه قادر على أن يجعله فاعلا للشيء مع كراهته له فيكو ن مريدا له حتى يفعله مع بغضه له كما قد يشرب المريض الدواء مع كراهته له قال الله تعالى {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً }الرعد15 و قال {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً }آل عمران83 فكل ما يقع من العباد بإرادتهم و مشيئتهم فهو الذي جعلهم فاعلين لهَ بمشيئتهم سواء كانوا مع ذلك فعلوه طوعا أو كانوا كارهين له فعلوه كرها و هو سبحانه لا يكرههم على ما لا يريدوه كما يكره المخلوق المخلوق حيث يكرهه على أمر و إن لم يرده و ليس هو قادرا أن يجعله مريدا له فاعلا له لامع الكراهة و لا مع عدمها فلهذا يقال للعبد إنه جبر غيره على الفعل و الله أعلى و أجل و أقدر من أن يقال بأنه جبر بهذا المعنى و قد يستعمل لفظ الجبر فى أعم من ذلك بحيث يتناو ل كل من قهر غيره و قدر عليه فجعله فاعلا لما يشاء منه و إن كان هو المحدث لإرادته و قدرته عليه قال محمد بن كعب القرظي فى إسم الله الجبار قال هو الذي جبر

العباد على ما أراد و كذلك ينقل عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب أنه قال فى الدعاء المأثور اللهم داحي المدحو ات و باري المسمو كات جبار القلوب على فطرتها شقيها و سعيدها و الجبر من الله بهذا الإعتبار معناه القهر و القدرة و أنه يقدر أن يفعل ما يشاء و يجبر على ذلك و يقهرهم عليه فليس كالمخلوق العاجز الذي يشاء مالا يكون و يكون ما لا يشاء و من جبره و قهره و قدرته أن يجعل العباد مريدين لما يشاء منهم إما مختارين له طوعا و إما مريدين له مع كراهتهم له و يجعلهم فاعلين له و هذا الجبر الذي هو قهره بقدرته لا يقدر عليه غيره و ليس هو كإجبار غيره و إكراهه من و جوه منها أن ما سواه عاجز لايقدر أن يجعل العباد مريدين لما يشاؤه و لا فاعلين له و منها أن غيره قد يجبر الغير و يكرهه إكراها يكون ظالما به و الله تعالى عادل لا يظلم مثقال ذرة

و منها أن غيره قد يكون جاهلا أو سفيها لايعلم ما يفعله و ما يجبر عليه و لا يقصد حكمة تكون غير ذلك و الله عليم حكيم ما خلقه و أمر به له فيه حكمة بالغة صادرة من علمه و حكمته و قدرته [1]

الله تعالى خلق الأسباب والمسببات

قال الله تعالى { كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ{54} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56} المدثر54-56 فالذي عليه السلف و أتباعهم و أئمة أهل السنة و جمهور أهل الإسلام المثبتون للقدر المخالفون للمعتزلة إثبات الأسباب و إن قدرة العبد مع فعله لها تأثير كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها و الله تعالى خلق الأسباب و المسببات و الأسباب ليست مستقلة بالمسببات بل لابد لها من أسباب أخر تعاونها و لها مع ذلك أضداد تمانعها و المسبب لا يكون يخلق جميع أسبابه و يدفع عنه أضداده المعارضة له و هو سبحانه يخلق جميع ذلك بمشيئته و قدرته كما يخلق سائر المخلوقات فقدره العبد سبب من الأسباب و فعل العبد لايكون بها و حدها بل لابد من الإرادة الجازمة مع القدرة و إذا أريد بالقدرة القوة القائمة بالإنسان فلابد من إزالة الموانع كإزالة القيد و الحبس و نحو ذلك و الصاد عن السبيل كالعدو و غيره وقوله تعالى {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }التكوير29 لايدل على أن العبد ليس بفاعل لفعله الإختيارى و لا أنه ليس بقادر عليه و لا أنه ليس بمريد بل يدل على أنه لا يشاؤه إلا أن يشاء الله و هذه الآية رد على الطائفتين المجبرة الجهمية و المعتزلة القدرية فإنه تعالى قال {لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }التكوير28 فأثبت للعبد مشيئة و فعلا ثم قال {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }التكوير29 فبين أن مشيئة العبد معلقة بمشيئته الله و الأولى رد على الجبرية و هذه رد على القدرية الذين يقولون قد يشاء العبد مالا يشاؤه الله كما يقولون إن الله يشاء مالا يشاؤون وإذا قالوا المراد بالمشيئة هنا الأمر على أصلهم و المعنى و ما يشاؤون فعل ما أمر الله به إن لم يأمر الله به قيل سياق الآية يبين أنه ليس المراد هذا بل المراد و ما تشاؤون بعد أن أمرتم بالفعل أن تفعلوه إلا أن يشاء الله فإنه تعالى ذكر الأمر و النهي و الوعد و الوعيد ثم قال بعد ذلك {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ {30} الانسان29-30 و قوله { وَمَا تَشَاؤُونَ {30} الانسان 30 نفي لمشيئتهم فى المستقبل و كذلك قوله {إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ {30} الانسان30 تعليق لها بمشيئة الرب فى المستقبل فإن حرف أن تخلص الفعل المضارع للإستقبال فالمعنى إلا أن يشاء بعد ذلك و الأمر متقدم على ذلك و هذا كقول الإنسان لا أفعل هذا إلا أن يشاء الله وقد إتفق السلف و الفقهاء على أن من حلف فقال لأصلين غدا إن شاء الله أولأقضين ديني غدا إن شاء الله و مضى الغد و لم يقضه أنه لا لايحنث و لو كانت المشيئة هي الأمر لحنث لأن الله أمره بذلك و هذا مما إحتج به على القدرية و ليس لهم عنه جواب و لهذا خرق بعضهم الإجماع القديم و قال أنه يحنث و أيضا فقوله {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ{30} الانسان30 سيق لبيان مدح الرب و الثناء عليه ببيان قدرته و بيان حاجة العباد إليه و لو كان المراد لا تفعلون إلا أن يأمركم لكان كل أمر بهذه المثابة فلم يكن ذلك من خصائص الرب التى يمدح بها و إن أريد أنهم لا يفعلون إلا بأمره كان هذا مدحا لهم لا له [2]

---

[11] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 459-465

[2] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 490

لا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور

فتوحيد الربوبية أنه لا خالق الا الله فلا يستقل شيء سواه باحداث أمر من الامور بل ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن فكل ما سواه اذا قدر سببا فلا بد له من شريك معاون وضد معوق فاذا طلب مما سواه احداث امر من الامور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه حتى ما يطلب من العبد من الافعال الاختيارية لا يفعلها الا باعانة الله له كأن يجعله فاعلا لها بما يخلقه فيه من الارادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة وعند وجود القدرة التامة والارادة الجازمة يجب وجود المقدور فبمشيئة الله وحده مستلزمة لكل ما يريده فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وما سواه لا تستلزم ارادته شيئاً بل ما أراده لا يكون الا بامور خارجة عن مقدوره ان لم يعنه الرب بها لم يحصل مراده ونفس ارادته لا تحصل الا بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى { لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29}}التكوير28-29 وقال تعالى {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30} يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{31} الانسان 29-31 وقال { فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56} المدثر55- 56 والراجي لمخلوق طالب بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق وذلك المخلوق عاجز عنه ثم هذا من الشرك الذي لا يغفره الله فمن كمال نعمته وإحسانه إلى عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد[1]

فارقنا مجوس الأمة و فارقنا الجبرية

اعلم أن العبد فاعل على الحقيقة و له مشيئة ثابتة و له إرادة جازمة و قوة صالحة و قد نطق القرآن بإثبات مشيئة العباد فى غير ما آية كقوله { لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير28-29 {فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً }المزمل19 { فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56} المدثر55-56 ونطق بإثبات فعله فى عامة آيات القرآن يعملون يفعلون يؤمنون يكفرون يتفكرون يحافظون يتقون وكما أنا فارقنا مجوس الأمة بإثبات أنه تعالى خالق فارقنا الجبرية بإثبات أن العبد كاسب فاعل صانع عامل و الجبر المعقول الذي أنكره سلف الأمة و علماء السنة هو أن يكون الفعل صادرا على الشيء من غير إرادة و لا مشيئة و لا إختيار مثل حركة الأشجار بهبوب الرياح وحركة بإطباق الأيدي و مثله فى الاناسي حركة المحموم و المفلوج و المرتعش فإن كل عاقل يجد تفرقة بديهية بين قيام الإنسان و قعوده و صلاته و جهاده و زناه و سرقته و بين إنتعاش المفلوج و إنتفاض المحموم و نعلم أن الأول قادر على الفعل مريد له مختار و أن الثانى غير قادر عليه و لامريد له و لا مختار [2]

---

[1] الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 331

[2] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 393-394

الإستطاعة نوعان

والصواب الذي دل عليه الكتاب و السنة أن الإستطاعة متقدمة على الفعل و مقارنة له أيضا و تقارنه أيضا إستطاعة أخرى لا تصلح لغيره فالإستطاعة نوعان متقدمة صالحة للضدين و مقارنة لا تكون إلا مع الفعل فتلك هي المصححة للفعل المجوزة له و هذه هي الموجبة للفعل المحققة له قال الله تعالى فى الأولى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً }آل عمران97 و لو كانت هذه الإستطاعة لا تكون إلا مع الفعل لما و جب الحج إلا على من حج و لما عصى أحد بترك الحج و لا كان الحج و اجبا على أحد قبل الإحرام به بل قبل فراغه و قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }التغابن16 فأمر بالتقوى بمقدار الإستطاعة و لو أراد الإستطاعة المقارنة لما و جب على أحد من التقوى إلا ما فعل فقط إذ هو الذي قارنته تلك الإستطاعة و قال تعالى {لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا }البقرة286 و الوسع الموسوع و هو الذي تسعه و تطيقه فلو أريد به المقارن لما كلف أحد إلا الفعل الذي أتى به فقط دون ما تركه من الواجبات و قال تعالى {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً }المجادلة4 و المراد به الإستطاعة المتقدمة و إلا كان المعنى فمن لم يفعل الصيام فإطعام ستين فيجوز حينئذ الإطعام لكل من لم يصم و لا يكون الصوم و اجبا على أحد حتى يفعله و قال النبى صلى الله عليه و سلم إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم و لو أريد به المقارنة فقط لكان المعنى فاتوا منه ما فعلتم فلا يكونون مأمورين إلا بما فعلوه و كذلك قال النبى صلى الله عليه و سلم لعمران بن حصين صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب و لو أريد المقارن لكان المعنى فإن لم تفعل فتكون مخيرا و نظائر هذا متعددة فإن كل أمر علق فى الكتاب و السنة و جوبه بالإستطاعة و عدمه بعدمها لم يرد به المقارنة و إلا لما كان الله قد أوجب الواجبات إلا على من فعلها و قد أسقطها عمن لم يفعلها فلا يأثم أحد بترك الواجب المذكور و أما الإستطاعة المقارنة الموجبة فمثل قوله تعالى { مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ }هود20 و قوله {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }الكهف101 فهذه الإستطاعة هي المقارنة الموجبة إذ الأخرى لابد منها فى التكليف فالأولى هي الشرعية التى هي مناط الأمر و النهي و الثواب و العقاب و عليها يتكلم الفقهاء و هي الغالبة فى عرف الناس و الثانية هى الكونية التى هي مناط القضاء و القدر و بها يتحقق وجود الفعل فالأولى للكلمات الأمريات الشرعيات و الثانية للكلمات الخلقيات الكونيات كما قال { وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ }التحريم12

وقد اختلف الناس في قدره العبد على خلاف معلوم الحق أو مراده و التحقيق أنه قد يكون قادرا بالقدرة الأولى الشرعية المتقدمة على الفعل فإن الله قادرا أيضا على خلاف المعلوم و المراد وإلا لم يكن قادرا إلا على ما فعله و ليس العبد قادرا على ذلك بالقدرة المقارنة للفعل فإنه لا يكون إلا ما علم الله كونه و أراد كونه فإنه ما شاء الله كان و ما لم يشأ لم يكن و كذلك قول الحواريين {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ }المائدة112 إنما إستفهموا عن هذه القدرة وكذلك ظن يونس{ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ }الأنبياء87 أي فسر بالقدرة كما يقال للرجل هل تقدر أن تفعل كذا أي هل تفعله و هو مشهور فى كلام الناس و لما إعتقدت القدرية أن الأولى كافية فى حصول الفعل و أن العبد يحدث مشيئته جعله مستغنيا عن الله حين الفعل كما أن الجبرية لما إعتقدت أن الثانية موجبة للفعل و هي من غيره راوه مجبورا على الفعل و كلاهما خطأ قبيح فإن العبد له مشيئة و هي تابعة لمشيئة الله كما ذكر الله ذلك فى عدة مواضع من كتابه {فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55} وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ

أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56}المدثر 55-56 { فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30} الانسان29-30 { لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29}التكوير 28-29 فإذا كان الله قد جعل العبد مريدا مختارا شائيا إمتنع أن يقال هو مجبور مقهور مع كونه قد جعل مريدا و إمتنع أن يكون هو الذي إبتدع لنفسه المشيئة فإذا قيل هو مجبور على أن يختار مضطر إلى أن يشاء فهذا لا نظير له و ليس هو المفهوم من الجبر بالإضطرار و لا يقدر على ذلك إلا الله ولهذا إفترق القدرية و الجبرية على طرفى نقيض و كلاهما مصيب فيما أثبته دون ما نفاه فأبو الحسين البصري و من و افقه من القدرية يزعمون أن العلم بأن العبد يحدث أفعاله و تصرفاته علم ضروري و إن جحد ذلك سفسطة وابن الخطيب و نحوه من الجبرية يزعمون أن العلم بإفتقار رجحان فعل العبد على تركه الى مرجح من غير العبد ضروري لأن الممكن المتساوي الطرفين لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح و كلا القولين صحيح لكن دعوى إستلزام أحدهما نفي الآخر ليس بصحيح فإن العبد محدث لأفعاله كاسب لها و هذا الإحداث مفتقر الى محدث فالعبد فاعل صانع محدث و كونه فاعلا صانعا محدثا بعد أن لم يكن لابد له من فاعل كما قال { لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28} التكوير 28 فإذا شاء الإستقامة صار مستقيما ثم قال {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29} التكوير 29 فما علم بالإضطرار و ما دلت عليه الأدلة السمعية و العقلية كله حق و لهذا كان لا حول و لا قوة إلا بالله و العبد فقير إلى الله فقرا ذاتيا له في ذاته و صفاته و أفعاله مع أن له ذاتا و صفات و أفعالا فنفي أفعاله كنفي صفاته و ذاته و هو جحد للحق شبيه بغلو غالية الصوفية الذين يجعلونه هو الحق أو جعل شيء منه مستغنيا عن الله أو كائنا بدونه جحد للحق شبيه بغلو الذي قال { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }النازعات24 و قال إنه خلق نفسه و إنما الحق ما عليه أهل السنة و الجماعة و إنما الغلط فى إعتقاد تناقضه بطريق التلازم و أن ثبوت أحدهما مستلزم لنفي الآخر فهذا ليس بحق و سببه كون العقل يزيد على المعلوم المدلول عليه ما ليس كذلك و تلك الزيادة تناقض ما علم و دل عليه [1]

{ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ }

إنه { أَهْلُ التَّقْوَى }المدثر56 أي المستحق لأن يتقى و إذا قيل {هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى }المدثر56 كان هو فى نفسه متصفا بما يوجب أن يكون هو المتقي و منه قول النبى صلى الله عليه و سلم إذا رفع رأسه من الركوع بعد ما يقول ربنا و لك الحمد ملء السموات و ملء الأرض و ملء ما بينهما و ملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء و المجد أحق ما قال العبد و كلنا لك عبد اللهم لا مانع لما أعطيت و لا معطى لما منعت و لا ينفع ذا الجد منك الجد أي هو مستحق لأن يثنى عليه و تمجد نفسه والعباد لا يحصون ثناء عليه و هو كما أثنى على نفسه [2]

قال تعالى { هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ }المدثر 56 فهو سبحانه أهل التقوى ولم يقل سبحانه أهل للتقوى بل قال { أَهْلُ التَّقْوَى{56}المدثر 56 فهو وحده أهل ان يتقى فيعبد دون ما

---

[1] مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 372

[2] مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 319-320

سواه ولا يستحق غيره أن يتقى كما قال {وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ }النحل52 وقال {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ }النور52 وهو أهل المغفرة ولا يغفر الذنوب غيره كما قال تعالى { وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ َ }آل عمران135 وفى غير حديث يقول النبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فهو سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار فى غير موضع كقوله سبحانه {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ }محمد19 فالمؤمنون يستغفرون مما كانوا تاركيه قبل الاسلام من توحيد الله وعبادته وإن كان ذلك لم يأتهم به رسول بعد كما تقدم والرسول يستغفر من ترك مما كان تاركه كما قال فيه { مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ }الشورى52 وإن كان ذلك لم يكن عليه عقاب والمؤمن إذا تبين له أنه ضيع حق قرابته أو غيره استغفر الله من ذلك وتاب وكذلك إذا تبين له أن بعض ما يفعله هو مذموم [1]

[1] مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 690

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

###